كتاب السياسة

أو

الإشارة في تدبير الإمارة

لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ

ويليه

النهج المسلوك في سياسة الملوك

ونهاية الرتبة في طلب الحسبة

كلاهما للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيزري المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

ويليه

نهاية الرتبة في طلب الحسبة

لمحمد بن أحمد بن بسام المحتسب

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل — أحمد فريد المزيدي

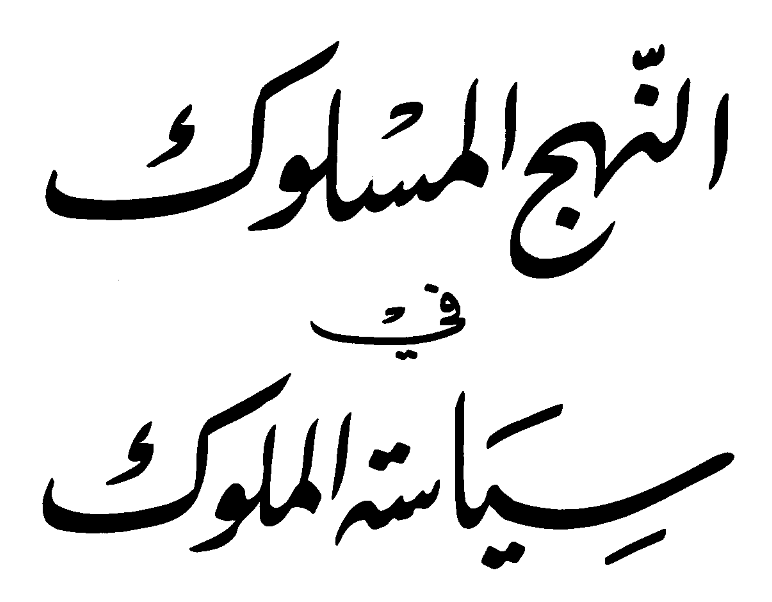
منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيزري

المتوفى سنة ٥٩٠هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل

أحمد فريد المزيدي





ترجمة المصنف

الشيزرى

هو العلامة الأديب الفقيه الطبيب القاضى المعتبر: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله أبو النجيب، جلال الدين العدوى الشيزرى، وقيل: الشيزرى، والشيرازى، قاضى طبريا، شيخ صلاح الدين الأيوبى وطبيبه، نسبته إلى قلعة شيزر قرب المعرة من أعمال حلب.

مصنفاته

١ – النهج المسلوك فى سياسة الملوك، بتحقيقنا.

٢ – نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، بتحقيقنا.

٣ – الإيضاح فى أسرار النكاح، بتحقيقنا.

٤ – خلاصة الكلام فى تأويل الأحلام، بتحقيقنا.

وهو كغيره من كثير من المصنفين، لم يُنصف فى ترجمته، وقد توفّي على الراجح سنة ٥٩٠هـ، وقيل: ٥٨٩هـ.

مصادر ترجمته

١ – الأعلام للزركلى (٣/٢٤٠).

٢ – كشف الظنون (١٩٨٧).

٣ – هدية العارفين (١/٥٢٨).

٤ – مجلة الكتاب (٢/٦٥٩).

٥ - معجم سركيس (١١٧٥).

٦ - فهرس معهد المخطوطات العربية.

٧ - فهرس دار الكتب الظاهرية.

٨ - فهرس مكتبة شستربتى (٤٨٨).

٩ - ٨٢٢ BROCK.S.I.

١٠ - قائمة دار الكتب العلمية، بيروت.

ولقد اعتمدنا فى تحقيق كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى، على نسخة طبعت بمطبعة الظاهر سنة ١٣٢٦هـ.

كتبه: محمد حسن محمد حسن إسماعيل

أحمد فريد المزيدى

١٥ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

* * *

 (١)

الحمد لله(٢) الذى عجزت العقول(٣) عن معرفة ذاته، والأفكار عن الإحاطة بكنه

---

(١) الباء للملابسة، والظرف مستقر، حال من ضمير ابتدئ الكتاب، كما فى: دخلت عليه بثياب السفر، أو للاستعانة، والظرف لغوّ، كما فى: كتبت بالقلم، من اختار الأول نظم إلى أنه دخل فى التعظيم، ومن اختار الثانى نظر إلى أنه مشعر بأن الفعل لا يتم ما لم يصدر باسمه تعالى، وإضافة اسم الله تعالى إن كانت للاختصاص فى الجملة، تشمل أسماءه كلها، وإن كانت للاختصاص وضعًا لذاته تعالى المتصف بالصفات الجميلة، اختص بلفظ الله للوفاق على أن ما سواه معان وصفات، وفى التبرك بالاسم والاستعانة به كمال التعظيم للمسمى، فلا يدل على اتحادهما، بل ربما يستدل بالإضافة على تغايرهما.
والرحمن الرحيم: اسمان بنيا للمبالغة، من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والأول أبلغ؛ لأن زيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى، ومختص به تعالى بحسب الوضع، وليس كذلك، بل لأن معناه المنعم الحقيقى البالغ فى الرحمة غايتها، وتعقيبه بالرحيم من قبيل التتميم، فإنه لما دل على جلائل النعم وأصولها، ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها.
انظر: القاموس المحيط للفيروزأبادى (٤/٢٩٢ - ٣٤٤)، غرر الأحكام لمنلاخسرو (١/٣).

(٢) افتتح المصنف، رحمه الله، بعد التيمن بالبسملة بحمد الله تعالى، أداءً لحق شىء بما يجب عليه من شكر نعماته، التى تأليف هذا الكتاب أثر من آثارها، واقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بخبر: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع»، وفى رواية: «بالحمد»، وفى رواية: «بالحمد لله»، وفى رواية: «وكل كلام لا يبدأ فيه بالحمد، فهو أجذم»، رواه أبو داود وغيره، وحسنه ابن صلاح وغيره، ومعنى ذى بال، أى حال يهتم به، وفى رواية للإمام أحمد: «ما لا يفتتح بذكر الله، فهو أبتر وأقطع». انظر: نهاية المحتاج للشمس الرملى (١/٢٤).

(٣) جمع عقل، وبه تعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات، وقد ينقسم قسمين: غريزى، ومكتسب، فالغريزى هو العقل الحقيقى، وله حدّ يتعلق به التكليف لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تم فى الإنسان سمى عاقلاً، وخرج به إلى حد الكمال، كما قال صالح بن عبد القدوس:

إذا تم عقل المرء تمت أموره ... وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أى من كان عاقلاً.
واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى، فقال قوم: هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات. ومن قال بهذا اختلفوا فى محله، فقالت طائفة منهم: محله الدماغ؛ لأن=

صفاته، وتحيرت الأبصار فى بدائع مصنوعاته، وشهدت له بالوحدانية عجائب أرضه وسمواته، وبعد: فأحمده على منته العظام، وأياديه الجسام، حمد معترف بسوابغ الأنعام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا منعوتًا بالجلال، موصوفًا بالكمال، منزهًا عن الحركة والسكون والانتقال، مقدسًا عن الجسم والشج والخيال، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله ببرهان لامع المنار، وقرآن ساطع الأنوار، قاطع بإعجازه حجج الكفار، وقامع بإيجازه ألباب أولى الأفكار، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار، صلاة قائمة بالعشىّ والإبكار، وبعد:

قال عبد الرحمن بن عبد الله: لما كان المولى الناصر صلاح الدين يوسف ملك الإسلام والمسلمين، أبو المظفر ابن أيوب بن شادى مجده أمير المؤمنين، أدام الله دولته، وحرس على الإسلام طلعته، قد أتاه الله ملكه العظيم، وهداه صراطه المستقيم، وأورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأوطأه من الملوك رقابها ومناكبها، ممن يعز الأدب وفضله، ويؤثر العلم وأهله، ضممت لخزانة علومه هذا الكتاب، وهو يحتوى على طريق من الحكمة، ومن الأدب، وأصول من السياسة وتدبير الرعية، ومعرفة المملكة، وقواعد التدبير، وقسمة الفىء والغنيمة على الأجناد، وما يلزم الجيش من حقوق الجهاد، ونبهت فيه على الشيم الكريمة، والأخلاق الذميمة، وأشرت فيه إلى فضل المشورة، والحث عليها، وكيفية مصابرة الأعداء، وسياسة الجيش، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى

=الدماغ محل الحس، وقالت طائفة منهم: محله القلب؛ لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس.
قال الشيخ الماوردى: وهذا القول فى العقل بأنه جوهر لطيف فاسد، من وجهين، أحدهما: أن الجواهر متماثلة، فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها، ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها، لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله. والثانى: أن الجوهر يصح قيامه بذاته، فلو كان العقل جوهرًا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل، كما جاز أن يكون جسم بغير عقل، فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا.
وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو المدرك للأشياء على ما هو عليه من حقائق المعانى، وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله، فبعيد من الصواب من وجهٍ واحدٍ، وهو أن الإدراك من صفات الحى، والعقل عرض يستحيل ذلك منه، كما يستحيل أن يكون متلذذًا، أو ألمًا، أو مشتهيًا. وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو جملة علوم ضرورية، وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال، ويتناوله من الاحتمال والحد، وإنما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الإجمال والاحتمال.
وقال آخرون: إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية. قال الشيخ الماوردى: وهو القول الصحيح. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص٤).

الذهن شواهد صحتها، ومعالم أدلتها، مع نوادر الأخبار، وشواهد من الأشعار، وفصلته أبوابًا تتضمن حكايات لائقة، ومواعظ شائقة، وحكمًا بالغة، وسلكت فى ذلك كله طريق الاختصار، ومذهب الإيجاز؛ لئلا تمجه الخواطر، وترفضه الأسماع، وسميته: «النهج المسلوك فى سياسة الملوك»، وكنت فى إيداعه خزانة علومه، كمهدىء الماء إلى هجر، أو الكافور إلى قيصور، ولكن قصدت بذلك إيصال الحكمة لأهلها، وأن أضعها فى محلها، وبالله أعتصم، وعليه التوكيل، وهو عشرون بابًا، وبالله التوفيق، وهو حسبى ونعم الوكيل، حسبى الله.

الباب الأول: فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل.

الباب الثانى: فى بيان فضل الأدب وافتقار الملك إليه.

الباب الثالث: فى معرفة قواعد الأدب.

الباب الرابع: فى معرفة أركان المملكة.

الباب الخامس: فى معرفة الأوصاف الكريمة والحث عليها.

الباب السادس: فى معرفة الأوصاف الذميمة والنهى عنها.

الباب السابع: فى كيفية رتبة الملك مع أوليائه حال جلوسه.

الباب الثامن: فى بيان فضل المشورة والحث عليها.

الباب التاسع: فى بيان أوصاف أهل المشورة.

الباب العاشر: فى معرفة أصول السياسة.

الباب الحادى عشر: فى معرفة جلوس الملك لكشف المظالم.

الباب الثانى عشر: فى ذكر أدب صحبة الملك.

الباب الثالث عشر: فى معرفة ما تكاد به الملوك فى غالب الأحيان.

الباب الرابع عشر: فى ما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبير الجنود.

الباب الخامس عشر: فى ما يلزم أهل الجيش من حقوق الجهاد.

الباب السادس عشر: فى مصابرة المشركين.

الباب السابع عشر: فى معرفة قتل قطاع الطريق وأهل الردة والبغى.

الباب الثامن عشر: فى معرفة قسمة الفىء والغنيمة.

الباب التاسع عشر: فيما ينبغى للملك فعله عند قفول الجيش.

الباب العشرون: فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك.

* * *

الباب الأول
فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل

قال عبد الرحمن: لما كانت الرعية ضروبًا مختلفة، وشعوبًا مختلطة متباينة الأغراض والمقاصد، متفرقة الأوصاف والطباع، افتقرت ضرورة إلى ملك عادل يقوم بأودها، ويقيم عمدها، ويمنع ضررها، ويأخذ حقها، ويذهب عنها ما أشقاها، ومتى خلت من سياسة تدبير الملك كانت كسفينة فى البحر اكتنفتها الرياح المتواترة، والأمواج المتظاهرة، قد أسلمها الملاحون، واستسلم أهلها إلى المنون.

واعلم أن الرعية تستظمىء إلى عدل الملك وتدبيره، استظماء أهل الحرث إلى الغيث الوابل، وينتعشون بطاعته كانتعاش النبت بما يناله من ذلك القطر، بل الرعية بالملك أعظم انتفاعًا منها بالغيث؛ لأن للغيث وقتًا معلومًا، وسياسة الملوك دائمة لا حد لها، ولا وقت، والرعية فى تباين أوصافها كنبات الأرض، فمنه الطيب المثمر، ومنه الخبيث القاتل، فما كان منه طيبًا، فإنه لا تزكوا أصوله فى أرضه، ولا تندى فروعه إذا جاوزه الخبيث فيها؛ لأن الخبيث يسبق مادته فى القرار، فيشربها وتكشف فروعه فى الفضاء، فلا يصل إلى الطيب حظه من النسيم، فإذا أصلحت الأرض، وأخرج ما فيها من النبت الخبيث، انتعش نبتها الطيب، وقوى أصله، ونما فرعه، وطاب ثمره، وكذلك الرعية لما جاور الخبيث طيبها، افتقرت ضرورة إلى ملك يصلح فاسدها، ويقمع صائلها، ويكسر شوكة أهل التعدى عليها لتنتعش أحوالها، وتزكو أموالها، ويكثر خيرها، وتصلح أمورها.

وقد قيل: الرعية بلا وال، كالأنعام بلا راع، فانظر سائمة الأنعام فى مراعيها إذا خلت من راعيها، ما أشد اختلال حالها، واختلاف أفعالها، بل الرعية أشد اختلالاً، وأكثر اختلافًا، فلابد من سلطان يمنعهم من المظالم، ويفصل بينهم فى التنازع والتخاصم، ولولاه لكانوا فوضى مهملين، وهمجًا مضاعين، وقال الأفوه الأودى:

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا ينبنى إلا بأعمدة ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

إن تجتمع فيه أوتاد وأعمدة ... لا شك نال أهالوه الذى رادوا

* * *

الباب الثانى

فى فضل الأدب وافتقار الملك إليه

قال عبد الرحمن: لما اقتصرت الرعية فى تدبيرها إلى تدبير الملك، وكان الأدب مجموع خلال حميدة، وخصال جميلة، افتقر إليه الملك ضرورة لتصدر عنه تصاريف التدبير فى المملكة على قانون العدل الذى به دوام المملكة، فقد قيل: من حسنت سياسته، دامت رئاسته.

واعلم أن الأدب أحد الأوصاف الأربعة التى يشترط قيامها بالملك فى تدبير المملكة، على ما سنوضحه فى موضعه، فإذا خلى الملك منه، اختلت سياسته وتدبيره، وقيل: الأدب صورة العقل، فمن لا أدب له، لا عقل له، ومن لا عقل له، لا سياسة له، ومن لا سياسة له، لا ملك له، وقال بعضهم: قرأت فى التوراة: أحسن الحلية الحسب، ولا حسب لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا عقل له، ولا عقل لمن لا أدب له. وقال بعض الحكماء: الأدب عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى العلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقه أن يعرفوا فضله، ويعظموا أهله.

وقال بعض الحكماء: ليس للمرء أن يفخر بحلة جليلة نالها بغير عقل، ومنزلة رفيعة جلبها بغير أدب، فإن الجهل ينزله منها، ويزيله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه هاجيًا، ووليه معاديًا. وكان يقال: عقل الأديب أبدًا فى إرشاد، ورأيه فى سداد، فقوله سديد، وفعله حميد. وقال رجل من قيس لسيد من قريش: اطلب الأدب، فإنه زيادة فى العقل، وكمال فى المنصب، ودليل على المروءة، وصاحب فى العزلة، وصلة فى المجالس، ويقال:

أدب المرء كلحم ودم ... ما حواه جسد إلا صلح
لو وزنّا رجلاً ذا أدب ... بألوف من ذوى الجهل رجح

وكان يقال: الأدب مال، واستعماله كمال. وأوصى ملك ولده، فقال: يا بنى، خصلتان يسود بهما المرء إن كان غير ذى مال: العلم، والأدب، يا بنى، جالس الكبراء، وخالط العلماء، فإن مؤاخاتهم كريمة، ومجالستهم غنيمة، وصحبتهم سليمة.

وأوصى رجل ولده، فقال: يا بنى، عليك بالأدب، فإنك إن كنت غنيًا كنت شريف قومك، وإن كنت محتاجًا لم يستغن عنك، ويحتاجك رؤساء البلاد وأشرافهم. وقيل:

من قعد به نسبه، نهض به أدبه. وقال بزر جمهر: ما أورث الآباء أبناءهم شيئًا أفضل من العلم والأدب؛ لأنهم إذا أورثوهم الأدب والعلم، اكتسبوا بهما الأموال، ونالوا بهما أعلى المراتب، وإذا أورثوهم الأموال أضاعوها وبقيوا هم عدمًا من قلة الأدب.

وكان يقال: الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين، والتوفيق خير قائد، والاجتهاد أربح تجارة، ولا مال أغنم من العقل، ولا عقل أوثق من المشورة، ولا فقر أشد من الجهل. وقيل: الأدب ثوب جديد لا يبلى، والعلم كنز عظيم لا يفنى. وقيل: من أدب ابنه أرغم عدوه. وقيل: ثلاثة ليس معهن غربة: حسن الأدب، ومجانبة الريب، وكف الأذية.

وقال نصر بن سيار: كل شيء يبدأ صغيرًا ثم يكبر، إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، وكل شيء يرخص إذا كثر، إلا الأدب، فإنه إذا كثر غلا، واعلم أن فضل الأدب أشهر من أن يسطر، وفى النفس الأبية باعث إليه إذا كانت تأبى ضده، وتكره مخالفته، وله قواعد تبنى عليها أركانه سنذكرها إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الثالث

فى معرفة قواعد الأدب

لما كان الأدب وصفًا مشروطًا للملك فى تدبير المملكة، افتقر فى ذلك إلى معرفة قواعده الذى لا يتحقق بدونها، ولا ينبنى إلا عليها، وهما قاعدتان لا يسع للملك تركهما، إذ هما أصلان فى السياسة والتدبير، القاعدة الأولى العلم، اعلم أن العلم بأحكام الدين، وضبط الشريعة، واجب على كل مسلم، وعلى الملوك أشد وجوبًا؛ لافتقارهم إلى إقامة الحدود الشرعية، وأخذ الحقوق من وجوهها، وصرفها إلى أربابها وجهاتها؛ ليتحقق منهم العدل الذى قامت به السموات والأرض، ومتى كان الملك جاهلاً من تدبيره، كان ذلك هدمًا لقواعد المملكة.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: من عمل بغير علم، كان ما يهدم أكثر مما يبنى[(١)].

---

(١) وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنى، تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطًا=

وقال عبد الرحمن: ولا محالة إذا كان ملك المدينة خاليًا من العلم، ركب هواه، وتخبطه ما يليه إذ لا تحجبه فكرة سليمة، ولا تمنعه حجة صحيحة، ويكون كالفيل الهايج فى البلد القفر، لا يمر بشىء إلا تخبطه، وإذا كان الملك عالمًا، كان له من علمه رادع يقمع هواه، ويميل به إلى سنن الحق، كالفيل الهايج إذا خرج من البلد القفر إلى الأنيس، ذللته السلسلة، وقهرته الكلاليب حتى تحمل عليه الأثقال.

وقال بعض الحكماء: الملك إذا لم يطرزه علم، كان مذلة آجلة، والعلم إذا لم يؤيده عقل كان مضلة عاجلة.

وكان يقال: إذا أراد الله بأمة خيرًا، جعل العلم فى ملوكهم، والملك فى علمائهم، وقال بعض الحكماء: العلم عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية.

وقال ابن عباس، رضى الله عنه: إن سليمان بن داود، عليهما السلام، خيره الله تعالى بين العلم والملك، فاختار العلم، فأعطاه الله تعالى العلم والملك جميعًا.

وأوصى ملك من ملوك اليمن ولى عهده، فقال: اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب أن يُفعل معك فافعل برعيتك، فانظر كل حسن فافعله، واستكثر من مثله، وكل قبيح فارفضه، وبالنصحاء يستبين لك ذلك، وخيرهم أهل الدين، وأهل النظر فى العواقب، واستكثر من العلم، فإنه أساس التدبير، وما ليس له أساس فمهدوم، وإنما رأيت الملوك تؤتى من ثلاثة أمور، فاحسم عنك واحدًا، وأحكم اثنين، وهى: اتباع الهوى، وتولية من يستحق، وكشف أمور الرعية، فإنك إن ملكت هواك، لم تستأثر، ولم تعمل إلا بالحق، وإن وليت المستحق كان عونًا لك على ما تحب، ولم تضيع على يديه الأمور، وإذا تناهت إليك أمور رعيتك، فاستفهم من الوضيع فى حق الرفيع، وأمسك المظالم، وآمن المظلوم والسالم.

وحكى أن عبد الله بن صالح بن على دخل بغداد على بعض شباب بنى العباس، فحادثه فوجده على خلاف ما عهد إليه أسلافه فساءه ذلك، فلما خرج من عنده قال:

=سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم. وقال بعض الحكماء: العلم شرف لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه. وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٣).

إن الجهل يحط أولى المراتب، ويصغر ذوى المناصب، ثم أنشد:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

وقال بعض العلماء: الجهل مطية من ركبها زل، ومن صحبها ضل، وأنشدنى بعض أهل العلم شعرًا فى المعنى:

احفظ العلم ما استطعت فإنـ ... ـك إن كنت خاملاً رفعك
اترك الجهل ما استطعت فإنـ ... ـك إن كنت عاليًا وضعك

وقال بعض العلماء: من غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، ومن غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الفكرة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت، ومن غرس الحرص اجتنى المذلة، ومن غرس الطمع اجتنى الخزى، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد.

القاعدة الثانية من قواعد الأدب نهى النفس عن الهوى، وذلك لازم للملك فى التدبير؛ لأن صواب الرأى وخطأه إنما يكون بحسب قوة التخيل الفكرى وضعفه، فمن قوى تخيل فكره، كان على سلطان الهوى غالبًا، وإنما يضعف التخيل الفكرى إذا استولت على النفس الشهوات، فيحتجب العقل عن صواب الرأى، فإذا قهر الملك نفسه عن هواها، ومنعها شهواتها الضارة بها ونهاها، ظهر له صواب الرأى والتدبير فى أمره بالعقل، ومتى لم يملك الملك ضبط نفسه عن هواها، وهى واحدة، لم يملك ضبط حواسه، وهى خمس، وإذا لم يملك ضبط حواسه مع قلتها وذلتها، صعب عليه ضبط الخاصة من أعوانه والعامة، مع كثرة جمعهم وخشونتهم، ومن لم يضبط خاصته من أعوانه وهم نصب عينيه، لم يضبط عامته من رعيته فى أقاصى بلاده وأطراف مملكته، وليس للآدمى عدو أقوى من نفسه، فبقهر الآدمى نفسه يقهر حواسه الخمس؛ لأنها أعوان النفس، ودليلها على الشهوات الموبقة، وقد رأينا قوة الحاسة الواحدة منهن على انفرادها إذا أتت على نفس من النفوس القوية الحذرة، ألهتها عن مصلحتها حتى توردها موارد الموت، فكيف إذا اجتمعت خمس على نفس واحدة.

فمن ذلك أن الظبى مع شدة نفوره إذا سمع صوت أواتى القفر مع تواتر النقرات واصطحابها، ألهاه سماع ذلك عما يراد به، فيلبث فى مكانه حتى يأتيه الصياد فيقبضه،

والفيل مع عظم جسمه وشدة قوته، يلهيه لين اللمس، ويذهله عن نفسه حتى تنصب له المصائد، فيصاد ويذل ويركب عنقه، والجراد الذى يستكن من حر الشمس إذا رأى ضوء النار أعجبه نورها، وحسن منظرها، فيلهيه ذلك حتى يلقى نفسه فيها فتحرقه، وذباب الورد المتتبع لطيب الروايح، يطلب ما يقطر من أصل أذن الفيل عند هيجانه، فإنه يكون فى طلب رائحة المسك، ولا يهوله تحريك أذن الفيل، بل يلهيه شم ذلك عن الاحتراز حتى يلج فى أصل أذنه، فتقع عليه الأذن فتقتله، والسمك فى البحر يسلبه ذوق الطعم، ويلهيه عن الصنارة التى فيها اللحم فيبلعها، فيكون فيها حتفه، فمن ملك هذه الحواس الخمس، فقد ملك نفسه، ومن ملك نفسه حسنت سياسته، ودامت رئاسته، ومن أعطى نفسه هواها باتباع ملاذ شهواتها، اشتغل عن تدبير مهماته، فتخل أمور دولته، وتنحل عرى مملكته.

وسُئل رجل من بنى أمية عن سبب زوال دولتهم، فقال مثل ما قال بزرجمهر: شغلتنا لذاتنا عن مهماتنا، وقل عطاؤنا لجندنا، فقل ناصرنا، وجرنا على أهل خراجنا، فدعوا علينا، وطلبوا الراحة منا، وأشد من ذلك أنا استعملنا صغار العمال على كبار الأعمال، فآل ملكنا إلى ما آل. وقال بعض الحكماء: العقل كالزوج، والنفس كالزوجة، والجسم كالبيت لهما، فإذا كان سلطان النفس غالبًا قاهرًا، اشتغلت النفس بمصالح الجسم، إما لمنفعة تجلبها، أو لمضرة تجتنبها، كما تشتغل الزوجة التى قهرها زوجها بمصالح بيتها العائدة عليها وعلى زوجها، وإن كان سلطان النفس على العقل غالبًا، كان سعى النفس فاسدًا، ونزعاتها مذمومة، كفعل الزوجة التى قهرت زوجها، وكان يقال: إن الملك الحازم يخاف ظهور عدوّه عليه، حتى يتجاوز عدوه قضايا العقل إلى قضايا الهوى، فحينئذ يبشر بالغلب، ويثق بحسن المنقلب.

وكان يقال: الهوى كالنار إذا عسر إيقادها عسر إخمادها، والسيل إذا اتصل مدة تعذر رصده. وقال المأمون: الهوى يبين من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ولهذا شعر:

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى   فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعدا جميعًا بنفسه   وقد وجدت فيه مقالاً عواذله
وما يزع النفس الحرون عن الهوى   من الناس إلا حازم الرأى كامله

وقال أزدشير: ما استعان ملك على رعيته بعدل أفضل من مجانبته الهوى. وأوصى

رجل ولده، فقال: يا بنى، اعص هواك والنساء، وافعل ما شئت. وكان يقال: إذا غلب عليك عقلك فهو لك، وإذا غلب عليك هواك فهو لعدوك. وقال بعض الحكماء: أكثر مخالفة الهوى، فإن النفس أمارة بالسوء، تكره ما لها، وتحب ما عليها، ولا يسلم من الندم من استنصح الهوى والنفس، ولهذا شعر:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

وأوصى ملك من ملوك حمير أخاه، فقال: لا يكن الإفراط من شأنك فى نكال، ولا نوال، فإنه من النكال يجحفك، ومن النوال يؤثمك، وإذا أنكرت نفسك فأمسك وغالب هواك، فإنه أضر ما اتبعت، واعمل بالحق، فإنه لا يضيق مع شىء، ولا يتعب فيه عاقل، ولا يعقبك فيه تبعة، وليكن خوف بطانتك لك أشد من أنسهم بك.

وأوصى ملك من العرب ولى عهده، فقال: كن بالحق عمولاً، وعما جهلت سؤولاً، وأول شىء تؤدب به نفسك منعها عن شهواتها، وردعها عن هواها، فلا شىء أضر بالمملكة من اتباع الهوى، واخفض عن الأمور يظهر لك حقائقها، واستبطن أهل التقوى وذوى الأحساب تزين نفسك، وتحكم أمرك، وإياك وقبول التزكية فيما لا تشك أنك مكذوب فيه، فإنها خدعة تتبعها صرعة، ولا تضع سرك إلا عند من يكتمه، ولا تثق برجل تتهمه، ولا تعوّد لسانك الخنا، ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليه، وإذا هممت بخير فعجله، وإذا هممت بخلافه فتأن فيه، وإياك وكثرة التأنى، فمن تأنى على الله أكذبه، وارحم ترحم، شعر:

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنا ... بطاعة الحزم وعصيان الهوى

* * *

الباب الرابع

فى معرفة أركان المملكة

اعلم أن المملكة تبنى على قاعدة كلية، لا قوام لها بدونها، ولا تثبت إلا عليها، وهى منها بمنزلة الرأس من الجسد، فكما لا بقاء للجسد بعد الرأس، كذلك لا بقاء للمملكة بدون هذه القاعدة، وهذه القاعدة لها أركان خمسة بها قوام القاعدة، فإذا انتقص منها ركن أوهن القاعدة، وأفضى إلى اضطرابها، فتحل المملكة، كما أن النفس يقوم بها

أركان خمسة، وهى: الغذاء، والشحم، والدم، والمخ، والعظم، فإذا انتفض منها ركن فى شخص، بطل عنه البواقى، وخرج عن السلامة، وهذه القاعدة وأركانها الخمسة لها أساس لا تثبت إلا عليه، فإذا اتسع هذا الأساس اختلت الأركان، واضطربت القاعدة وأفضى الأمر إلى هدم الجميع، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

أما القاعدة التى تنبنى عليها المملكة، فهى: الملك المنتصب لتدبير الرعية، وسياسة الملك، ويقيمه أوصاف أربعة لا ينفك عنه واحدة منهن، وهى: أدبه، وعقله، وعدله، وإقدامه، فإذا عرى عن شىء من ذلك، ذهبت قوته، وضعفت عن عمل المملكة، كالطبائع الأربع المركبة فى جسد الإنسان لا قوام لها إلا بها، فإذا خلا عن واحدة منهن، انحل تركيب الجسم، وزهقت منه النفس، فإذا استقام الملك بهذه الأوصاف، قامت به المملكة.

والركن الأول من أركان المملكة هو الوزارة: وهو على ضربين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ، فأما وزارة التفويض، فهو أن يستوزر الملك من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه؛ لأن ما وكل إلى الملك من تدبير الرعية لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستعانة، وأما وزارة التنفيذ، فالنظر فيها مقصور على رأى الملك وتدبيره، والوزير هو واسطة بين الملك وبين الرعية، يؤدى عنه ما أمر به، وينفذ ما ذكر، ويمضى ما حكم، ويخبر عنه بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من أمرهم، وما تجدد من حدث ملم، ولا مندوحة للملك عن نظر الوزير واستعمال رأيه فيما يجهله من أمور التدبير والوقائع الحادثة، وقد روت عائشة، رضى الله عنها، أن النبى ﷺ، قال: «من استعمل على عمل وأراد الله به خيرًا، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه»[1].

وقد ينجو المغلوب من الملوك برأى وزيره، حتى يغلب من غلبه بقوة رأيه، وإن كان ضعيفًا بلطف حيلته، والغالب له أقوى منه. واعلم أنه لابد للوزير أن يستعمل فيه عشرة أوصاف:

الأول: العلم؛ لأن تدبير الجاهل يقع مخالفًا للشرع، فيكون وبالاً.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣/١٣١) ح (٢٩٣٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٦/٧٠) ح (٢٤٤٥٩)، وابن حبان فى صحيحه (١٠/٣٤٥) ح (٤٤٩٤)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/١١١) ح (٢٠١٠٧)، وعزاه الحافظ الهيثمى للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد (٥/٢١٠).

الثاني: السن؛ لأن الشيخ حنكته التجارب، وعركته النوائب، وشاهد من اختلاف الدول ونزول الحوادث ما أوضح لعقله صواب الرأى فى التدبير.

الثالث: الأمانة، حتى لا يخون فيما اؤتمن عليه، ولا يغش فيما استنصح فيه.

الرابع: صدق اللهجة، حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، ويعمل بقوله حتى ينهيه.

الخامس: قلة الطمع، حتى لا يرتشى، ولا ينخدع.

السادس: أن يصلح وأن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة أو شحناء؛ لأن العداوة تصد عن التناصف، وتمنع من التعاطف.

السابع: أن يكون ذكورًا لما يؤديه إلى الملك، أو ينقله عنه؛ لأنه شاهد له وعليه.

الثامن: الذكاء والفطنة، حتى لا يدلس عليه فيشتبه، ولا تموه عليه الأحوال فتلتبس؛ لأن الأمور لا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يتم مع التباسها حزم.

التاسع: أن لا يكون من أهل الأهواء، فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، ويتدلس عليه المحق من المبطل؛ لأن الهوى خادع الألباب، وصارف عن الصواب.

العاشر: أن يكون من أهل الكفاءة فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج، خبيرًا بهما، عارفًا بتفصيلهما، فلا يكون مباشرًا لهما تارة، ومسيبًا تارة أخرى.

وعلى هذا الوصف مدار الوزارة، وهذه الأوصاف العشرة بها تنتظم أمور السياسة، ومتى لم تجتمع فى الوزير هذه الأوصاف العشرة، كان تدبيره ناقصًا بقدر ما نقص منها.

وحكى أن المأمون كتب فى اختيار وزير: إنى التمست لنفسى وتدبير أمورى رجلاً جامعًا لخصال الخير، ذا عفة فى خلائقه واستقامته فى طريقه، قد هذبته الآداب، وحنكته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه.

قال عبد الرحمن: وهذه الأوصاف إن كملت فى الوزير، فقل أن يكمل فى الصلاح

بنظر عام، وبتدبير تام، وإن اختلفت، فالصلاح بحسب نقصها مختل، والتدبير على قدرها معتل. وقد كان الفضل بن سهل وزير المأمون يبعث أصحابه إلى البلاد عيونًا، يسمعون ما تقول الناس فيه من خير أو شر، فيطالعونه بذلك، فما سمع من خير ازداد منه، وما سمع من عيب فيه أزاله، وإن وفدًا قدموا على المأمون من بلاد الروم فأكرمهم، فلما رجعوا إلى بلادهم قال عقلاؤهم: ما رأينا مثل المأمون جلالة، وعقلاً، ولا رأينا مثل وزيره فى سمته وكمال أوصافه، لولا أنه حديث السن، ومن شأن الملوك أن يستوزروا المشايخ الذين اجتمعت لهم الحيلة والرئاسة والعلم والتجربة، فأخبره أصحابه بذلك، قال: فاحتجب ثلاثة أيام فى داره يعالج لحيته حتى ظهر للناس وهى بيضاء.

ولا يجوز أن يكون الوزير امرأة؛ لقوله ﷺ: «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»[1].

الركن الثانى من أركان المملكة الرعية: اعلم أن الرعية ركن شديد من أركان المملكة، وهى قسمان: خاصة وعامة، والخاصة قسمان: متصنع فى خدمة الملك، ومطبوع على الانكماش، والقيام بحقوق الخدمة، فليعرف الملك المتصنع منهم والمطبوع، فإن العون من الخاصة المتصنع فى خدمته يكون فى أول ذلك نشيطًا مواظبًا للخدمة، ثم يدركه فتور الطبيعة، وقصور الهمة، فيفتر عما يتعاطاه أولاً، ويذهب تصنعه، والمطبوع على الانكماش فى الخدمة يكون نشطًا فى كل وقت مثل نشاطه فى أول خدمته، وأما العامة، فهم ثلاث طبقات: أخيار، وأشرار، ومتوسطون بين ذلك، ولكل طبقة منهم سياسة سنذكرها فى مواضعها إن شاء الله تعالى.

والمطلوب من الرعية طاعة الملك، وذل الجانب، وعمارة البلاد، وأداء الحقوق، وإنما يحصل ذلك بنشر العدل عليهم، على ما سنذكره فى بابه إن شاء الله تعالى.

الركن الثالث من أركان المملكة القوة: فقوة الملك تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أحدها: قوة رتبته فى الناس، وهيبته عليهم، وما يقع فى نفوسهم من عزته وسطوته واستعلائه وقدرته، الثانى: قوة احتماله بنفسه لما يرد عليه من الأمور واستقلاله بذلك، الثالث: قوة التدبير لأمور المملكة والنفاذ فيها بحسن نظر العواقب فى الأمور.

---

(١) لم أجده فى مظانه.

أما القوة الأولى، فتحصل بحسن السياسة على ما سنذكره فى موضعه، والقوة الثانية تحصل بآداب النفس كما ذكرناه فى الباب الذى قبله، والثالثة تنقسم على ثلاثة أقسام، أحدها: تدبير إبرام الأمور بعد الاحتيال فيها، ووضع الأصول لها، الثانى: تدبير معرفة الوقوف على الأمر الذى لا يوجد للتدبير فيه حيلة حتى لا يصير إلى ما يصير إليه، ثم يطلب الحيلة فيه بعد ذلك، الثالث: تدبير ما لا حيلة فيه.

واعلم أن أفضل هذه القوى قوة التدبير، فأما الأمر الذى لا حيلة فيه ولا رفق، فالحيلة فيه الصبر واللين؛ لأن متعاطى الشدة فيه ينقلب اللين عليه إذا لم يرفق، ألا ترى أن ذا القوة لقوته يناله الضرر من سباحة الماء على ليونته، ولم يقطعه بقوته، فإذا رفق سهل عليه عبوره الماء، وأمكنه قطعه، وكذلك من حاول أن يقعد بكفه على الهواء صعب عليه، ولم يجد إلى ذلك سبيلاً، ولو أن الفيل بقوته تعاطى ثلم الجبل بنابه، انكسر ولم يؤثر فى صفوانه شيئًا، والرجل على ضعفه برفقه وحيلته يتخذ من الجبل الصلد مسكنًا، وقد يذيب الحديد الشديد برفقه وحيلته.

واعلم أن الملك القوى قد ينبو عن حد قوته إذا لم يعنه رفق، كما ينبو السيف عن ضربته، وإن كان من الحديد الشديد حتى يسقى من الماء الذى هو لين سيال، فتشحذ مضاربه، حتى إذا حمل على الحديد الذى هو من جنسه قطعه كله، ذلك إنما يحصل بالرفق دون الخرق، وسنوضح كيفية التدبير فى مواضعه إن شاء الله تعالى.

الركن الرابع من أركان المملكة المال: اعلم أن بيت المال ركن عظيم للمملكة، تتعلق به المصالح الكلية من أرزاق المقاتلة، والولاة، وأعوانهم، وتجهيز الجيوش، وأرزاق الفقراء والمساكين، وأهل العلم، وسد الثغور، وبناء المعاقل والحصون، وغير ذلك مما تقوم به مصالح الرعية، وبقدر زيادته ونقصانه يكون حال المملكة، وناموس الملك عند نظرائه وخاصته وأعوانه؛ لأنه ذخيرة يرجع إليها الملك والأعوان والرعية عند نزول الحوادث، فإذا اشتهر بكثرة أنواع الأموال، واختلاف أجناس الجواهر، اشتد أزر الرعية، وقويت نفوس الجند، وعظم قدر الملك عند أمثاله، وإذا اشتهر بالنفاذ والقلة، صغر قدر الملك، واختلت أمور الملك، وطمع فيه أعداؤه، فيجب حفظ بيت المال واحتياطه عليه بتوليته الثقاة، وأهل الأمانة، وبتوقى الملك الإسراف فى بذله وصرفه إلى غير أهله، ولا يمنعه أهل الحقوق فيحصل بذلك الزلل، ويتطرق إليه الخلل، سيما الجند وأعوانه، فإن تقتير الأرزاق يفضى بالملك إلى المهالك.

وقد كان يقال: المال ناموس تظهر به هيبته، وتقوى أبهته، حكى أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب، وجعلها على باب خزانة المال، يجلس عليها الخزنة وغيرهم، فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته، فلما أفضت المملكة إلى ولد ولده، جعل يفرق الأموال، ويسرف فى العطايا، فلما نفدت تلك الأموال، أخذ تلك الأعمدة وسبكها، فوجدها مجوفة، وقد ملئت رملاً، فذهب حينئذ ناموسه، وتظاهرت أعداؤه، وقلت هيبته عند أهل مملكته حين علموا سر هذه الأعمدة.

وحكى عن بعض ملوك مصر أنه أخذ جبايا من الخزف وملأها ذهبًا، ثم سبكه، ثم كسر الخزف وأزاله، فبقى كهيئة الجباب، ثم جعلها على باب قصره يجلس عليها الناس، وسماها الحسرات، وإنما قصد ذلك أيضًا لإقامة ناموس مملكته، وتقوية نفوس جنده، فلهذه المعانى يجب حفظ المال والاحتياط عليه.

الركن الخامس من أركان المملكة الحصون: اعلم أن الحصون التى يتحصن بها الملوك، ويمتنع بها جانبهم، تنقسم إلى خمسة أقسام، كل نوع منها يحصل به التحصن وامتناع الجانب، وهى: المال، والجبال، والمفاوز، والقلاع، والرجال، وأحصن هذه الحصون الرجال، ثم القلاع، وتحصين الرجال بالأموال، وأفضل الأموال الأطعمة، وجمع الأطعمة وتحصيلها إنما يتحقق بالعدل، قيل: كان مكتوبًا على منطقة بعض ملوك الفرس: لا ملك إلا برجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالرعية، ولا رعية إلا بالعدل، وقالت أم جيفونة ملكة طبرستان لنصر بن سيار الملك الحازم: من اتخذ إلى نفسه سبعة أشياء، حصن يلجأ إليه إذا تظاهر عليه نظراؤه، ووزير صالح يثق برأيه ويفضى بسره إليه، وذخيرة خفيفة الحمل يرجع إليها عند النوائب، وفرس يثق بجريه إذا داهمته الأعداء، وسيف إذا نازل الأقران لم يخف أن يخونه، وامرأة حسناء إذا دخل عليها ذهب همه، وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع له ما يشتهيه.

وكتب ملك إلى حكيم، فقال: دلنى على ما تبقى به المملكة؟ فقال، واختصر فى ذلك بأربعة أشياء: حصن شاهق، ووزير حاذق، ومال وافر، وعدل عامر. وبلغ بعض الملوك حسن سياسة ملك، فكتب إليه: قد بلغت من السياسة ما لم يبلغه ملك قبلك، فدلنى إلى ذلك؟ فكتب إليه: إنى تحصنت بالرجال، وحصنت الرجال بالأموال، ولم أهزل فى أمر ونهى، ولا وعد ولا وعيد، وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت، وودًا لم يشبه كذب، وأخذت بالقوة، ومنعت بالتفضل.

وسأل ملك من ملوك الفرس حكيمًا من حكمائهم: ما عز الملك؟ فقال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة، والعدل فى العامة، قال: فما حصن الملك؟ قال: وزراؤه وأعوانه، فإنهم إذا صلحوا صلح الملك، وإذا فسدوا أفسد الملك، قال: فما سبب صلاحهم؟ قال: البذل والإنعام والإحسان الشامل، قال: فأى الأمور أحمد للملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الأموال من غير مشقة، وأداؤها إليهم عند أوانها، وسد الثغور، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم من الظالم، وزجر القوى عن الضعيف، قال: فأى خصلة تكون فى الملك أنفع؟ قال: الصدق فى جميع الأحوال، وأما الأساس الحامل للمملكة فهو الدين.

اعلم أن الدين أساس المملكة، لا قوام لها إلا به، ولا تثبت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود، وامتثال أمر الشارع، والانتهاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها، والعمل بما يرضى الله تعالى سرًا وعلانية، فإنه لا دوام للملك بغير هذه الأشياء. قال رسول الله ﷺ: «من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله، أصلح الله فيما بينه وبين الناس».

وحكى أن أزدشير قال لولده: إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا قوام له إلا به، الدين أس، والملك حارس، فمن لم يكن له أس فمهدوم البناء، ومن لم يكن له حارس فضائع، يا بنى، اجعل مرتبتك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل العلم ولأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وبرك لمن يعنيه ما عناك من أهل العقل. قال الأحنف بن قيس: من هدم دينه كان لمجده أهدم، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم. وقال بعض الحكماء: الدولة بلا دين كالبناء على الثلج.

* * *

الباب الخامس

فى معرفة الأوصاف الكريمة وفضلها وحث الملك عليها

ينبغى للملك المنتصب لتدبير الرعية أن يتصف بالأوصاف الكريمة، ويتلبس بها، ويجعلها له خلقًا مطبوعًا، ولا يهمل منها وصفًا واحدًا، إذ بها قوام دولته، ودوام مملكته، وهى خمسة عشر وصفًا: العدل، العقل، الشجاعة، السخاء، الرفق، الوفاء، الصدق،

الرأفة، الصبر، العفو، الشكر، الأناة، الحلم، العفاف، الوقار، وسنشرح فضل هذه الأوصاف وما يتعلق بها من المصالح الكلية فى تدبير المملكة.

الوصف الأول العدل(١): اعلم أن العدل أفضل أوصاف الملك، وأقوم لدولته؛ لأنه يبعث على الطاعة، ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال، وتنمى الأموال، وتنتعش الرعية، وتكمل المزية، وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه، وحثهم عليه، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠]. قال الحسن: الله تعالى جمع الخير كله والشر كله فى هذه الآية(٢)، وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها فى الآية، واضطرابه بالثلاثة المنهى عنها فيها.

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فالعدل فى الغضب، والرضى وخشية الله تعالى فى السر والعلانية، والقصد فى الغنى والفقر، وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(٣).

وحكى أن الإسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلة الشرائع فى بلادهم: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم: أيهما أفضل العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل استغنى عن الشجاعة. وقال أزدشير: إذا رغب الملك عن العدل، رغبت الرعية عن الطاعة. وعوتب كسرى أنو شروان على ترك عقاب المذنبين، فقال: هم المرضى إذا لم نداوهم بالعدل فمن لهم. وقال أفلاطون: بالعدل ثبات المملكة، وبالجور زوالها. وقيل لأزدشير: من الذى لا

---

(١) قال ابن مسكويه: الإمام العادل الحاكم بالسوية، يخلف صاحب الشريعة فى حفظ المساواة، فهو لا يعطى ذاته من الخيرات أكثر مما يعطى غيره. انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (ص١٥٦).

(٢) عزاه الحافظ السيوطى للبيهقى فى شعب الإيمان. انظر: الدر المنثور (٢٤١/٤).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢١٢/٤، ٢١٣) ح (٥٧٥٤) من حديث ابن عمر مرفوعًا بتحقيقنا، وقال الحافظ الهيثمى: فيه ابن لهيعة، ومن لا يعرف. انظر: مجمع الزوائد (٩٤/١)، وأخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٢١٤/١) ح (٢٣٥) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا، وكذلك الطبرانى فى الأوسط (١٢٩/٤) ح (٥٤٥٢) وإسنادهما فيه حميد بن الحكم الجرشى. قال ابن حبان: منكر الحديث جدًا، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد. انظر: لسان الميزان (٣٦٣/٢).

يخاف أحدًا؟ قال: من عدل فى حكمه، وكف عن ظلمه، نصره الحق، وأطاعه الخلق، وصفت له النعمة، وأقبلت عليه الدنيا، فهنئ بالعيش، واستغنى عن الجيش، وملك القلوب، وأمن الحروب.

قال بعض العلماء: إن أيدى الرعية تبع لألسنتها، فمتى قدرت أن تقول، قدرت أن تصول، فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها، ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه، ولن تحبه حتى يعدل عليها عدلاً يتساوى فيه الخاصة والعامة. قال كسرى أنوشروان لبزرجمهر: ابن لى قبة، واكتب عليها كلمات أنتفع بها فى بقاء الدولة ودوام المملكة، فبناها وكتب فى طرازها: العالم بستان، وسياجه الدولة، والدولة ولاية تحرسها الشريعة، والشريعة سنة يستسنها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفيهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية عبيد يستعبدهم العدل، والعدل مألوف به قوام العالم.

وقال الوليد بن هشام: يفسد الملك بفساد الملك، وينصلح بصلاحه. وقال سفيان الثورى للمنصور: إنى لأعرف رجلاً إن صلح صلحت الأمة، قال: ومن هو؟ قال: أنت.

واعلم أن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم عشر خصال:

أحدها: إقامة منار الدين، وحفظ شعائره، والحث على العمل به من غير إهمال له، ولا تفريط بحقوقه.

الثانى: حراسة البيضة الإسلامية، والذب عن الرعية من عدو فى الدين، أو باغ فى النفس والمال.

الثالث: عمارة البلدان باعتماد الصلاح وتهذيب السبل والمسالك.

الرابع: النظر فى تعدى الولاة وأرباب المناصب والأعوان على الرعية؛ لأن تعديهم منسوب إليه، قال الشاعر فى المعنى:

ومن يربط الكلب العقور ببابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب
كذلك من ولى ابنه وهو ظالم فظلم جميع الناس من قبل الأب

الخامس: النظر فى أموال الجند وغيرهم من أهل الرزق؛ لئلا يبخسهم العمال أرزاقهم، أو يؤخروا العطاء عنهم، فيجب الانتصار لهم.

السادس: الجلوس لكشف المظالم، والنظر بين المتشاجرين من الرعية، والفصل بينهم بالنصفه على وجه الشرع.

السابع: تقدير ما يخرج من بيت المال على طبقات أربابه من غير إسراف ولا إقتار.

الثامن: إقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر على قدر الجريمة.

التاسع: اختيار خلفائه فى الأمور، وولاته، وقضاته، وعماله، بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة والحذق والدراية فيما هم بصدده.

العاشر: تنفيذ ما وافق من أحكام القضاة وأهل الحسبة، وما عجزوا من تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه وتعززه، فينفذ الملك ما حكموا به عليه بالشرع.

فإذا فعل الملك هذه العشر خصال، كان مؤديًا لحق الله تعالى فى الرعية بالعدل الذى أمر الله تعالى، وكان مستوجبًا لطاعتهم، ومستحقًا لمناصحتهم، وإن ترك شيئًا من ذلك، كان للعدل ناكبًا، وفى الجور راغبًا، وفى المعنى شعر:

اختم وطينك رطب إن قدرت فكم ... قد أمكن الختم أقوامًا فما ختموا
زلوا فما عدلوا أيام دولتهم ... حتى إذا عزلوا زلوا فما رحموا

الوصف الثانى العقل[1]: اعلم أن العقل وصف شريف، وخلق عظيم لا يبطل حقًا، ولا يحق باطلاً، وهو عبارة عما يستفاد من التجارب بمجارى الأحوال. وقيل: هو العلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ومن نتائجه الفكرة السليمة، والنظر الثاقب فى حقائق الأمور ومصالح التدبير. وسُئل بعض الحكماء عن العقل، فقال: الإصابة بالنظر، ومعرفة ما لم يكن بما كان.

وقال بعض الحكماء: خير مواهب الملك العقل، وشر مصائبه الجهل. وكان يقال: الجاهل يعتمد على أجله، والعاقل يعتمد على عمله، وقيل: نظر العاقل بقلبه وخاطره، ونظر الجاهل بعينه وناظره. وقال ابن المعتز: بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس عن اتباع الهوى. وقال بعض الحكماء: العاقل من أتعب نفسه والناس منه فى راحة، والأحمق من نفسه فى راحة والناس منه فى تعب، وقال بعضهم فى المعنى:

---

(١) تقدم تعريفه فى الهامش رقم (٣) ص (٧٥)، واعلم أن الذى يحد هو العقل الغريزى، أما المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى، وهو نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس لهذا حدٌّ؛ لأنه ينمو إن استعمل، وينقص إن أهمل. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص٤).

وأفضل قسم الله للمرء عقله   وليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا كمل الرحمن للمرء عقله   فقد كملت أخلاقه ومناقبه

وقال بعض الحكماء: العقل قائد، والعلم سائق، والنفس حرون، فإذا كان قائد بلا سائق، حرنت النفس، وإذا كان سائق بلا قائد، عدلت يمينًا وشمالاً، فإذا اجتمع القائد والسائق، سارت طوعًا أو كرهًا، وقال بعضهم شعرًا:

تأمل بعينك هذا الأنام   وكن مثل من صانه عقله
فحيلة كل فتى فضله   وقيمة كل امرء بذله
ولا تتكل فى ارتفاع العلا   على نسب ثابت أصله
فهل من فتى زانه عقله   بشيء يخالفه فعله

وقال بعضهم: يعرف العاقل بحسن سمته، وطول صمته، وصحة تصرفه. وقال بعض الحكماء: ليس للمرء أن يتحجج بحالة جليلة نالها بغير عقل، فإن الجهل ينزله منها، ويزله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه هاجيًا، ووليه معاديًا(١).

وكان يقال: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر، فأما العاقل، فإن الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأى الحسن سجيته، إن كلم أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع العلم وعى، وإن حدث الفقه روى، وأما الأحمق، فإن تكلم عجل، وإن حدث وهل، وإن استنزل عن رأيه نزل، وأما الفاجر، فإن ائتمنته خانك، وإن حدثته شانك، وإن استكتمته أمرًا لا يكتمه، وإن علم علمًا لم يعمل به، وكان يقال: لا عطية أعظم من عقل، ولا داء أقوى من جهل. وقال المبارك الطبرى: ليس العاقل الذى يحتال الأمر الذى غشيه، بل العاقل الذى يتحذر الشدائد قبل الوقوع فيها حتى لا يقع.

وقال فيروز بن حصين: إذا أراد الله أن يزيل عن عبده نعمة، كان أول ما يغير منه عقله، شعر:

يعد رفيع القوم من كان عاقلاً   وإن لم يكن فى قومه بحسيب
إذا حل أرضًا عاش فيها بعقله   وما عاقل فى بلدة بغريب

الوصف الثالث الشجاعة: اعلم أن الشجاعة من أحمد الأوصاف التى يلزم الملك أن

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص٨).

يتصف بها ضرورة، وإن لم تكن له طبعًا تطبع بها لتحسم بهذا مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منها حماية المملكة، والذب عن الرعية، وحقيقة الشجاعة ثبات الجأش، وإظهار الرعب على الأعداء، وإذهاب الرعب عن الأوداء، وزوال هيبة الخصم، واستصغاره عند لقائه، ولابد أن يسبق ذلك رأى ثابت، ونظر صائب، وحيلة فى التدبير، وخداع فى الممارسة، فقد قال ﷺ: «الحرب خدعة»، وفى المعنى شعر للمتنبى:

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة   بلغت من العلياء كل مكان
ولربما قتل الفتى أقرانه   بالرأى قبل تطاعن الفرسان

واعلم أن ثمرة الشجاعة من الجند الكرّ والفر، وثمرتها من الملوك الثبات حتى يكون قطبًا يدورون عليه، ومعقلاً يلجأون إليه، هذا إذا كان بحضرته من يذب عنه، والأحسن منه حيئنذ أن يذب عن نفسه، إما بالإقدام وإما بالانهزام.

ولقد حكى أن فيلاً اغتلم، فدخل قصر كسرى أنوشروان، والفيل إذا اغتلم أنكر ساسته، ولا يمر بشىء إلا حطمه، وأن ذلك الفيل قصد الإيوان الذى فيه كسرى وعنده جماعة من خاصته، فلما نظروا إلى الفيل مقبلاً إليهم، خافوا غائلته، وفروا من حول كسرى، وثبت كسرى على سريره، ولم يتغير عن سريرته، ولا عن هيبته، وثبت عنده واحد من الرجال بيده طبر، فقام ذلك الرجل، أما كسرى، فقصده الفيل فثبت، فلما غشيه ضربه الرجل بالطبر على خرطومه فقدّه، فولى الفيل راجعًا، وكسرى فى هذا كله لم يزحزح عن سريره، ولا تغير لونه، ولا فارقته الهيبة، وهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملوك.

وكذلك حكى أن موسى الهادى كان يومًا فى بستان على حمار له، وليس معه سلاح، وبحضرته جماعة من أهل بيته وبطانته، فدخل عليه حاجبه، وأخبره عن رجل من الخوارج كان ذا بأس شديد، ونكاية فى الناس، وأنه قد ظفر به بعض القواد وهو معه على الباب، فأمر الهادى بإدخاله عليه، فأدخل بين رجلين قد قبضا عليه، فلما نظر الخارجى إلى الهادى جذب يديه من الرجلين، واخترط سيف أحدهما وقصد الهادى، ففر عنه كل من كان بحضرته من أهله وبطانته، وبقى الهادى وحده على حماره بمكانه ذاك حتى دنا الخارجى منه، ورفع يده بالسيف ليعلوه، فقال: يا غلام اضرب، فالتفت الخارجى ينظر من خلفه، فوثب الهادى من سرج حماره، فإذا هو على الخارجى، فقبض

عليه، وانتزع السيف من يده فذبحه، ثم عاد إلى حماره من فوره، وتراجع إليه خاصته يتسللون وقد ملئوا منه رعبًا وحياء، فما خاطبهم بشيء من ذلك، ولم يكن بعد ذلك يفارق السلاح، ولم يركب إلا جوادًا من الخيل، وهذا أعجب ما يكون من الشجاعة وثبات الملوك.

الوصف الرابع السخاء: اعلم أن السخاء عماد البر الذى هو سبب الألفة لما يوصل إلى القلوب من الراحة والألطاف، وكذلك ندب الشرع إليه، وحث الخلق عليه؛ لما فيه من عموم المصلحة فى الدنيا والآخرة؛ لأن فى السخاء رضى الله سبحانه وتعالى، ورضى الناس أجمعين، قال رسول الله ﷺ: «السخى قريب من الله، قريب من الناس، بعيد من النار»[١]، وقال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذنب الكريم، فإن الله يأخذ بيده كلما عثر»[٢]، وقالت عائشة، رضى الله عنها: الجنة دار الأسخياء، والنار دار البخلاء. وقيل: أوحى الله إلى موسى، عليه السلام: أن لا تقتل السامرى، فإنه كريم.

وحدث أبو القاسم، فقال: حضرت الحكم بن المطلب لما مات بمدينة متيخ، وقد أخذ فى النزع وشخص بصره، فقال أبو معيوف الحمصى: اللهم أرفق به، فإنه كان جوادًا، شجاعًا، صوامًا، قوامًا، قال: فلما أفاق من غشيته، قال: من المتكلم؟ فقال أبو معيوف: إن ملك الموت يسلم عليك، ويقول لك: إن الله تعالى أمرنى أن أرفق بكل كريم، ثم اضطجع، فكأنه كان فتيلة طفئت، رحمه الله. وكان يقال: سؤ ود بلا جود، كملك بلا جنود. وقيل: من جاد ساد، ومن ضعف ازداد. وكان يقال: جود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده.

واعلم أن السخاء على نوعين:

النوع الأول: هو أن يبتدئ به الإنسان من غير سؤال، وهذا طبع السخاء، وأشرف

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذى (٣٤٢/٤) ح (١٩٦١)، وقال: حديث غريب. والعقيلى فى الضعفاء الكبير (١١٧/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٢٣٨/٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٢٨/٧، ٤٢٩) ح (١٠٨٤٩)، والطبرانى فى الأوسط (٢٢/٢) ح (٢٣٦٣)، وفيه سعيد ابن محمد الوراق الثقفى أبو الحسن الكوفى، ضعيف. انظر: التقريب (ت٢٣٧٩).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٤٢٣/١) ح (٧٢٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٣/٧) ح (١٠٨٦٧)، وفيه انقطاع، والطبرانى فى الأوسط (٢٠٠/٤) ح (٥٧١٠)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه جماعة لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٨٥/٦).

العطاء؛ لأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، سُئل عن السخاء، فقال: ما كان منه ابتداء، فأما ما كان منه عن مسألة، فحياء وتكرم. وقال بعض الحكماء: أجل النوال ما كان قبل السؤال، وقال بعض الشعراء:

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع الأول من السخاء، والسخاء قد يكون لأسباب ثلاثة:

أحدها: أن يجد خلة يقدر على سدها، أو فاقة يتمكن من إزالتها، فلا يدعه الكرم وسماحة النفس أن يهمل ذلك، بل يكون مكفلاً بنجازها رغبة فى الأجر.

الثانى: أن يرى فى ماله فضلة عن حاجته، فيرى انتهاز الفرصة فيضعها عند ما يكون له دخرًا.

الثالث: أن يفعل ذلك سجية قد فطر عليها، فلا يميز بين مستحق ومحروم، ولا يفرق بين محمود ومذموم، وهذا هو السخاء طبعًا، غير أن هذا لا يصلح بالملك؛ لأنه خارج إلى السرف والتبذير، وبيت المال قد يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، فإذا أعطى غير مستحق فقد منع مستحقًا، وحال الملوك لا يقتضى ذلك.

النوع الثانى من السخاء ما كان عن طلب وسؤال، وعلامة السخى عند ذلك أن يلقى السائل بالترحيب وطلاقة الوجه، وأن يكتفى بالتلويح، ولا يحوج السائل إلى التصريح، كما قال الشاعر:

تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قريب صائر خبرًا فكن خيرًا تنال جزيلا

وينبغى له عند السؤال أن يعمل بالوعد قولاً، ثم يعمل بإنجازه فعلاً؛ ليكون السائل مسرورًا بعاجل الوعد، ثم يؤجل الإنجاز، كما حكى أن الفضل بن السهل سأله رجل، فقال: إنى أعدك اليوم، وأحبوك غدًا؛ لتذوق حلاوة الأمل، ولكن لا يطيل الوعد على السائل، فإنه لا تبقى حلاوة بمرارة الانتظار، شعر:

إن العطية لا تكون هنيئة حتى تكون قصيرة الأعمار

وقد مضت سنة الخلفاء الراشدين وملوك المسلمين بصلة المسترزقين على وجه الشرع من غير إسراف ولا إقتار، وذلك مشهور، فأعرضنا عن شروحه.

الوصف الخامس الرفق: اعلم أن الرفق أفضل أوصاف الملك، وأحمد أخلاقه فى التدبير؛ لأنه يبلغ به من أموال الرعية ما لا يبلغ بالخرق، فإن الرعية قد تعامل بالرفق، فتزول أحقادها، ويسهل مقادها، وقد تعامل بالخرق، فتكاشف على ما أضمرت، وتقدم على ما نهيت، ثم إن غلبت كان غلبها عارًا، وإن غلبت لم تحصل بغلبها افتخارًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «لو أن الرفق رجل لكان حسنًا، ولو كان الخرق رجلاً لكان قبيحًا»(١).

وقد يبلغ الملك برفقه ولينه فى التدبير ما لا يبلغه بخرقه، ألا ترى أن الريح العاصف بقوتها وهول صوتها، كيف يتداخل الشجر ولا يقتلع المستخلف منه، والماء بلينه وسلاسته يبلغ فى أصل الشجر المستخلف منه من أصوله، وباللين والتدبير ينقلب العدو صديقًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**...﴾ [المؤمنون: ٩٦] الآية، وبالخرق ينقلب الصديق عدوًا، كالطعام الذى هو غذاء الإنسان وقوام جسده، إذا أساء المقدر له فى تقديره، وأفرط فى تناوله، صار داء وانقلب أذى.

حكى أن كسرى أنو شروان سأل حكيمًا من حكمائهم، فقال: ما عز الملك؟ فقال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة، والعدل فى العامة، قال: فما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم من غير مشقة، وأداؤه إليهم عند أوانه.

وحكى شجاع الأحمر، قال: دخلت على المتوكل وبين يديه نصر بن على الجهمصى، وهو يحث المتوكل على الرفق بالرعية، ويرغبه فيه، والمتوكل ساكت، فلما فرغ من كلامه التفت إليه المتوكل، وقال: حدثنى مؤدبى الفضل، قال: حدثنى مؤدبى، عن أبى، عن جدى، ورفعه إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل عباد الله عند الله يوم القيامة إمام عادل»، ثم أتى بيحيى ابن أكثم، فقال: وأنت حدثتنى حديثًا ورفعته إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير»، ثم سكت ساعة متفكرًا، وقد أنشد بعضهم فى المعنى شعرًا:

ارفق فإن الرفق من لينه   قد أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرفق فى أمره   يستخرج الحية من وكرها

---

(١) عزاه الحافظ العجلونى للعسكرى، عن عائشة، بلفظ: «إن الرفق لو كان خَلْقًا، لما رأى الناس خلقًا أحسن منه، وإن الخرق لو كان خلقًا، ما رأى الناس أقبح منه». انظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢/٢٠٩، ٢١٠) ح (٢١١٢).

وقال بعضهم: دخلت على المتوكل فسمعته يمدح الرفق، واستكتب هذه الأبيات منى:

فلا تقطع أخاك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم
ولا تعجل على أحد بظلم ... فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تحزن عليه وكن رفيقا ... فقد بالرفق يستشفى الكليم
فإن الرفق فيما قيل يمن ... وإن الخرق فيما قيل شوم

وإنه ينبغى للملك أن يستعمل الرفق واللين فى جميع المواطن، ويجعل الرعية ثلاث طبقات، ويسوسهم بثلاث سياسات، طبقة هم الخواص من الأبرار، فيسوسهم بالعنف والشدة، وطبقة هم العامة، فيسوسهم باللين تارة والشدة تارة أخرى، وطبقة هم بين الطبقتين، وخليط عادات الاثنتين، فيسوسهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة.

وقال مسلم بن قتيبة: ملاك السلطان الشدة على السيئ، واللين على المحسن. وسأل ملك من ملوك الفرس بزرجمهر، فقال: ما أحسن سير الملوك؟ فقال: أن يعاملوا أحرار الناس بمحض المودة، ويعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، ويعاملوا السفهاء والسفلة بالمخافة، كما قيل:

إذا كنتم للناس فى الأرض قادة ... فسوسوا كرام الناس بالحلم والعدل
وسوسوا لئام الناس بالذل وحده ... صريحًا فإن الذل أصلح للعدل

الوصف السادس الوفاء: لما كان الوفاء من الأوصاف العلية، والشيم السنية، أمر الله تعالى الخلق به، ومدحهم على فعله، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾ [الإنسان: ٧].

والوفاء خليق بالملك؛ لما فيه من إيصال الراحة، واستعطاف القلوب بإنجاز الوعد، ودوام العهد. قال بعض الحكماء لملك فى زمانه: أوصك بأربع خصال، ترضى بهن ربك، وتصلح بهن رعيتك: لا تعدن وعدًا ليس لديك وفاؤه، ولا تتوعدن من لا ينفذ فيه الفعل، فإن بالأولى تذهب عظمتك، وبالثانية يعترض عليك، ولا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعرًا، ولا تستغش ناصحًا فتتغطى عنك أمور الرعية.

وقد كان يقال: من أحسن الوفاء استوجب الصفاء. وكان يقال: الوفاء من أخلاق الكرام، والخلف من أخلاق اللئام. وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لا يكاد يوعد بحاجة تخوفًا من الخلف، فإذا وعد أو قال: نعم، لم يقر له

قرار حتى يفى بما وعد، وأنشد رجل من بنى تميم فى المعنى شعرًا:

إذا قلت فى شىء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب

وإلا فقل لا واسترح وأرح بها ... لئلا يقول الناس أنك كاذب

وأنشد بعضهم:

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن ... عرفت من الأشياء شيئًا سوى نعم

وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن ... سمعت بها فى سالف الدهر والأمم

وكان يقول: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتسويف. وكان يقال: العاقل لا يعد بما لا يستطيع نجازه، ولا يسأل ما يخاف منعه، وأنشد بعض أهل العلم فى المعنى:

لا تقولن إذا ما لم ترد ... أن تتم الوعد فى شىء نعم

وإذا قلت نعم فاصبر لها ... بنجاح الوعد إن الخلف ذم

حسن قول نعم من بعد لا ... وقبيح قول لا بعد نعم

الوصف السابع الصدق: اعلم أن الصدق من اسمى السمات، ومن أشرف الصفات، وأسلم المناهج، يدعو إليه الشرع، فقد ورد باتباع الصدق ولو كانت الهلكة فيه، وحظر الكذب ولو جر نفعًا، أو دفع ضررًا، علمًا من الشارع بما ينقلب إليه عاقبتهما، والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنًا، ويمتنع من إتيان ما كان مستقبحًا، والكذب مستقبح عقلاً، لاسيما إذا كان لم يجلب نفعًا، ولا يدفع ضررًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «تخيروا الصدق، وإن رأيتم الهلكة فيه، فإن النجاة فيه، وتجنبوا الكذب، وإن رأيتم النجاة فيه، فإن الهلكة فيه»[(١)].

قال بعض الحكماء: دع الكذب حتى ترى أنه ينفعك، فإنه يضرك، وأت الصدق حتى ترى أنه يضرك، فإنه ينفعك، وكانت العرب تقول: لسان صدق مع العسرة، خير من سوء الذكر مع الميسرة، وأنشد بعضهم:

عود لسانك صدق القول تحظ به ... إن اللسان لما عودت معتاد

---

(١) معضل: أخرجه هناد فى الزهد (٢/٦٣٥) ح (١٣٧٥) مرسلاً عن مجمع بن يحيى الأنصارى، وعزاه الحافظ المنذرى لابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت معضلاً عن منصور بن المعتمر مرفوعًا: «تحروا الصدق، وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»، وأخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (١/٥١) ح (١٣٧) عن مجمع بن يحيى الأنصارى، عن منصور بن المعتمر مرفوعًا به، وابن أبى الدنيا فى الصمت (١/٢٢٧) ح (٤٤٦).

مـــوكل بتقاضى ما سننت لـــه   فاختر لنفسك وانظر كيف تزداد

وقال المهلب: ما يكون السيف الصارم بيد الملك الشجاع بأعز له من الصدق، وكان يقال: للملك أن يكون صدوقًا ليثق الأعوان بوعده، وأن كان شكورًا فيستوجب الزيادة.

قال الأحنف بن قيس: كل الناس حقيق بالصدق، وأحقهم به الملك؛ لأن الذى يدعوه للكذب مهانة النفس، والملك لا يكون مهانًا. وقال بعض أهل الأدب: كن صادقًا فى شىء تقوله، ولا تك كذابًا فتدعى منافقًا. وقال بعض الحكماء: أول سعادة الملك صدقه، وأول هلاكه جوره.

الوصف الثامن الرأفة: اعلم أن الرأفة جبلة كريمة تقتضيها حال الملوك؛ لأنها تبعثهم على حراسة الأمة، وكمال الشفقة، والتحنن على الرعية وضعفائها، واصطناع المعروف إليهم، وكف الأذية عنهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا المعروف عند الرحماء من أمتى، وعيشوا فى أكنافهم»(١)، وقال ﷺ: «إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(٢).

---

(١) عن الخليفة على، عليه السلام، عن النبىّ صلى الله عليه و آله وسلم، قال: «يا علىّ، اطلبوا المعروف من رحماء أمتى تعيشوا فى أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فإن اللعنة تنزل عليهم»، أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣٥٧/٤) ح (٧٩٠٨)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ومن حديث أبى سعيد الخدرى أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٤٠٦/١) ح (٧٠٠)، والخرائطى فى مكارم الأخلاق، قاله الحافظ العجلونى، وعزاه الحافظ العجلونى لابن عساكر، عن عبد الله بن بسر. انظر: كشف الخفاء (١٥٦/١) ح (٤٠٥).

(٢) عن أسامة بن زيد، رضى الله عنهما، مرفوعًا. أخرجه البخارى (٥٣٣١)، ومسلم (٦٣٥/٢) ح (٩٢٣) وأبو نعيم فى المسند المستخرج (١٠٩/٣) ح (٢٠٦٤)، وابن حبان فى صحيحه (٤٣٠/٧) ح (٣١٥٨)، وأبو داود (١٩٣/٣) ح (٣١٢٥)، والنسائى فى المجتبى (٢١/٤) ح (١٨٦٨)، وابن ماجه (٥٠٦/١) ح (١٥٨٨)، والإمام أحمد فى مسنده (٢٠٤/٥) ح (٢١٨٢٤)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٦٢/٣) ح (١٢١٢٣)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٥٥١/٣، ٥٥٢) ح (٦٦٧٠).

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ارحموا من فى الأرض، يرحمكم من فى السماء»، فأخرجه أبو داود (٢٨٥/٤) ح (٤٩٤١)، والترمذى (٣٢٣/٤) ح (١٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح، والإمام أحمد فى مسنده (١٦٠/٢) ح (٦٤٩٤)، والبيهقى فى الكبرى (٤١/٩) ح (١٧٦٨٣)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٥٣٥٥).

وروى مالك أن عمر بن لخطاب، رضى الله عنه، دعا رجلاً يستعمله على بعض مدائن الشام، فجيء بولد صغير لعمر، رضى الله عنه، فأخذه عمر إلى صدره، ثم قبله، فقال ذلك الرجل: يا أمير المؤمنين، أتقبله؟ قال: نعم، قال: والله إن لى أولادًا ما قبلت واحدًا منهم قط، فقال له عمر: أنت لا ترحم ولدك، ولا تتحنن عليه، فأنت للناس أقل رحمة وتحنينًا، ثم صرفه ولم يستعمله، ثم قال: لا يصلح وال من لا رحمة عنده لرعيته.

وروى مالك أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، مر بطريق مكة، فأبصر راعيًا يرعى غنمه فى مكان جدب، فناداه وقال: انظر مكانًا خصبًا فالحق به، ثم قال على أثر ذلك: كل راع مسؤول عن رعيته(١).

وروى أسلم مولى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: طاف عمر ليلة فى المدينة وأنا معه، فإذا هو بامرأة من جوف دارها، وحولها صبية يبكون، وهى توقد تحت قدر لها، فأتاها من الباب، وقال: يا أمة الله، مما بكى هذان الصبيان؟ فقالت: من الجوع، قال: فما هذه القدر؟ قالت: إنى جعلت فيها ماء أوهمهم أن فيها طعامًا، وأعللهم حتى يناموا، قال: فجلس عمر، رضى الله عنه، وبكى بكاء شديدًا، ثم قال: تمهلى، وقام وجاء إلى بيت الصدقة، فأخذ غرارة(٢)، وجعل فيها دقيقًا، وشحمًا، وسمنًا، وتمرًا، وثيابًا، ودراهم، حتى ملأ الغرارة.

ثم قال: يا أسلم، احمل هذا على ظهرى، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك، فقال: لا أم لك يا أسلم، احمل علىَّ، فأنا المطالب عنهم يوم القيامة، قال: فحمل الغرارة على صلبه، حتى أتى بها منزل المرأة، فأخذ القدر، وجعل فيها شيئًا من دقيق، وشحم، وتمر، وجعل يحركه وينفخ تحت القدر، قال أسلم: وكان له لحية عظيمة، فلقد رأيت الدخان يخرج من خلالها، حتى طبخ لهم، ثم جعل يفرق لهم بيده، ويطعمهم حتى شبعوا، قال: ثم خرج وتربص بحذائهم على الباب، كأنه سبع، فخفت أن أكلمه،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/١٠٨) ح (٥٨٦٩)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٣٣٨) ح (١٣٢٨٤).

(٢) الغرارة: الجوالق، واحده الغرائر. قال الشاعر:

كأنه غرارة ملأى حَثَى

قال الأيادى: الغرائر جمع غرارة، وهى ما يوضع فيها الشيء من التبن وغيره. انظر: عون المعبود للأيادى (٨/١٤٧).

فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، هل تدرى لما تربصت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، فقال: كنت رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسى.

وحكى أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لما ولى الخلافة، أحضر عنده محمد بن كعب القرظى، وقال: دلنى على النجاة من عذاب الله تعالى، فقال: فليكن كبير المسلمين لك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم ولدًا، فوقر أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقل نصر بن يسار الكنانى: كان عظماء الترك يقولون: ينبغى للملك العظيم أن يكون فيه عشر خصال، أربع من خصال الطير، وست من خصال الوحش، وهى: سماحة الديك، وتحنن الدجاجة، وحراسة الكركى، وحذر الغراب، وحملة الخنزير، وقلب الأسد، وغارة الذئب، وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وشقاء الضب، وقد نظم هذا بعض الشعراء:

أبى يطير لا يتركن آثار خيلنا ... لا كل لحوم من أعاد سواغب
وما زال من حب لنا غير عادة ... لهن علينا فى بقاء الكتائب
أرى الملك المقدام من تم أمره ... بعشر خصال هن خير المناقب
سماحة ديك ثم رأف دجاجة ... وحرسة كركى وحذرة زاغب
وحملة خنزير وقلب غدنفر[1] ... وغارة ذئب ثم روغ الثعالب
وكالكلب صبرًا حين يقرع بالعصا ... وشقوة ضب فى بلاد سباسب
فمن كان هذا وصفه فهو كامل ... عظيم وإلا فهو أخيب خائب

وقال بعض العلماء: خير الملوك من ملأ قلوب رعيته محبة، كما أشعرها هيبة، ولن ينال ذلك منها حتى يكون عاملاً بخمس خصال: إكرامه شريفًا، ورحمته ضعيفًا، وإغاثته لهيفًا، وكف عدوان عاديها، وتأمين السبيل لرائحها وغاديها، ومتى أعدم الرعية شيئًا من ذلك، فقد أحقدها بقدرها وقدر ما أفقدها.

الوصف التاسع الصبر: اعلم أن الصبر يتنوع أنواعًا كثيرة، أليقها بكمالها فى كتابى هذا صبر الملوك، وهو عبارة عن ثلاثة قوى، القوة الأولى: قوة الحلم وثمرتها الصبر،

---

(١) الأصل بالدال، ولعله بالضاد كالمشهور.

القوة الثانية: قوة الحفظ وثمرتها عمارة المملكة، الثالثة: الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات؛ لأن إقدامهم فى المعارك تهور وطيش، والصبر سيد الأوصاف الجليلة وأميرها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الصبر خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبر أخوه، والصبر أمير جنوده».

وليس المراد تفضيل الصبر على العلم والعقل، وإنما المراد أن الثبات على هذه الخصائص إنما يكون بالصبر؛ لأن الصبر الثبات، والحبس، والإثبات، والإمساك، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يصبر، كان عند مزايلته كمن لم يتصف به، فالصبر ضابط للأوصاف الشريفة، كما يضبط الأمير جنوده. وقيل: كان مكتوبًا فى الصحيفة الصغرى المعلقة فى أعظم هياكل الفرس: كما أن الحديد يعشق المغناطيس، فكذلك الظفر يعشق الصبر، فاصبر تظفر، ولهذا أنشد بعضهم:

إنى وجدت وخير القول أحمده ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وليس من كان فى أمر يطالبه ... واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وقال بعض حكماء العرب: ما ميز الرجل بين صبر ولا جزع إلا وجدهما متفاوتين، أما الصبر فحسن الأولى، محمود بالعاقبة، والجذع غير معوض شيئًا، ولو كانا فى صورة لكان الصبر أولاهما بحسن الخلقة وكرم الطبيعة.

وقال بعض الحكماء: الحوادث النازلة نوعان، أحدهما لا حيلة فيه، فدفعه بالصبر الدائم، والإعراض عنه، الثانى يمكن فيه الحيلة، فدفعه بالصبر عنه إلى حين نفوذ الحيلة فيه، وأنشد بعضهم شعرًا:

اصبر إذا دهمتك نائبة ... ما خاب من يصبو إلى الصبر
فالصبر أولى ما اعتصمت به ... ونعم حوشا جوانب الصدر

وقال حسن البصرى: جربنا وجرب المجربون، فلم نر شيئًا أنفع من الصبر، به تداوى الأمور، وهو لا يداوى بغيره[1].

عن سليمان بن داود، عليهما السلام، أنه قال: إنا وجدنا خير معيشتنا الصبر. وكان عيسى ابن مريم، عليه السلام، يقول: يا معشر الحواريين، إنكم لا تدركون ما تؤملون إلا

---

(١) وقال الخليفة على، عليه السلام: الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٦٢).

بالصبر على ما تكرهون، ولهذا شعر:

ويـوم كـان للمصطلـين بحـره ... وإن لم تكن نارًا قيامًا على الجمر
صبرنـا لـه حتـى تفـرح إنمـا ... تفـرج أيـام الكريهـة بالصبـر

وقل آخر شعرًا:

الصـبر أولى بوقـار الفتـى ... مـن قلـق يهتـك ستـر الوقـار
مـن لـزم الصبـر على حالـة ... كـان علـى أيامـه بالخيـار

الوصف العاشر العفو: اعلم أن وصف العفو خليق بالملك؛ لما فيه من المزيـة وكمـال الرعية؛ لأن الملك متى عاقب على الزلة، وقابل على الهفوة، وأخذ بالجرم الصغـير، ولـم يتجاوز عن الكبير، قبحت سيرته، وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أفضل القصـد عند الحدة، وأفضل العفو عند القدرة، وما أقبح مجازاة القـادر علـى سـوء صنيـع المقـدور عليه.

وكان معاوية، رضى الله عنه، يقول: إن أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وإن انقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه. وقيل: إن عظيمًا من عظماء قريش فـى سـالف الدهر، كان يطلب رجلاً، فلما ظفر به، قال له: لولا أن القدرة تذهب الحفيظة لانتقمت منك، ثم أطلقه، فحسنت سيرته.

وغضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القشرى، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة، وأنا مسـتحق إلى العقوبـة، فـإن تعـف فـأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، فعفى عنه، والله أعلم.

وحكى أن المأمون لما ظفر بعمه إبراهيم بن المهدى، أحضر عنده جماعة من خواصـه، ثم قال: علىَّ به، فـأدخل عليـه وهـو يحجـل فـى قيـوده، فقـال: السـلام عليـك يـا أمـير المؤمنين، فقال: لا سلام الله عليك، ولا مرحبًا بك، فقال إبراهيم: على رسـلك يـا أمـير المؤمنين، ثم أنشد يقول:

أنـا المذنـب الخطـاء والعفـو واسـع ... ولـو لـم يكـن ذنـب لمـا عـرف العفـو
سكرت فأبدت منـى الكـأس بعـض مـا ... كرهت وما أن يستوى السكر والصحو
فـإن تعـف عنـى كـان حظـى وافـرا ... وإلا تداركنـى فقـد قصـر الخطـو

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنك ولىّ ثأرى، وإن القدرة تذهب الحفيظة، وإنى قد أصبحت فوق كل ذى ذنب، كما أصبح كل ذى عفو دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، قال: فأطرق المأمون، ثم رفع رأسه، وقال: إن هذين أشارا علىَّ بقتلك، يعنى العباس والمعتصم، فقال: إنهما أشارا على ما يشير به مثلهما على مثلك، إذ كان منى الذى كان، فقال: يا عماه، إن من الكلام كلامًا كالدر فى لبات الغوانى، وإن هذا الكلام منه، يا غلام، حل القيود عن عمى، وكان المأمون يقول: ليس على العفو بونة مزية، وإنى وددت أن أهل الجرائم يعلمون حلمى وعفوى، فيذهب عنهم الخوف.

وكان يقال: أقبح المجازاة المكافأة بالإساءة. وقيل: إن عبد الملك بن مروان اشتد غضبه على رجل، فلما صار فى يده، قال له: يا فاجر، لأمثلن بك أشر الأمثال، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد صنع ما أحببت يا أمير المؤمنين، فاصنع ما يحبه الله من العفو عنه، قال: فعفى عنه وأطلقه، وكان المأمون يقول: لو علم الناس رغبتى فى العفو، ما تقربوا إلىَّ إلا بالذنوب، وأنشد فى المعنى:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   واغفر له ذنبه إن برّ أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره   وقد أجلك من يعصاك مستترا

ويحكى أنه جرى بين شهرام المروزى، وبين أبى مسلم الخراسانى كلام شديد ومنازعة، فما زال أبو مسلم يقاوله، إلى أن قال له شهرام: يا لقيط، فلما قال ذلك سكت، ثم إن شهرام ندم، فأقبل على أبى مسلم معتذرًا وخاضعًا، فلما رأى أبو مسلم ذلك، قال: لسان سبق، ووهم أخطأ، وإنما الغضب من الشيطان، والعذر يسعك، والعفو أجمل، وقد عفونا عنك، فقال شهرام: أيها الأمير، إن عفو مثلك لا يكون إلا غرورًا، فإن عظم ذنبى لا يدع قلبى يسكن، فقال أبو مسلم: يا عجبًا، كنت تسئ وأنا أحسن، فإذا أحسنت أسئ، وأنشد بعضهم فى المعنى شعرًا:

تعفو الملوك عن العظيم   من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير   وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها   وتخاف شدة نكلها

ويحكى أن المنصور بعث إلى جعفر بن محمد، فلما أتاه قال: إنى أريد أن أستشيرك

فى أمر، وقد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى، وقد نهيتهم مرة بعد أخرى فلم ينتهوا، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يقطع نخلها، ويغور عيونها، فما ترى أنت؟ فسكت جعفر، فقال له: ما لك لا تتكلم؟ قال: أتكلم أنا؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان، عليه السلام، أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف، عليه السلام، قدر فغفر، وإن محمدًا ﷺ أوذى فاحتمل، وقد جعلك من نسل الذين يغفرون ويعفون ويصفحون، قال: فانطفأ غضبه، وأمسك عنهم، وأنشد بعضهم فى المعنى شعرًا:

أشكو إليك همومًا ليس يكشفها ... إلا رضاك فقوّم بالرضى أودى
إن تعف عنى فأهل العفو أنت وإن ... عاقبتنى فكما تجنى علىّ يدى

وقال آخر:

لقد ناديت عفوك من قريب ... كما سالمت شخصك من بعيد
فإن عاقبتنى فبسوء فعلى ... وما ظلمت عقوبة مستفيد
وإن تمنن فإحسان جديد ... مننت به على شكر جديد

الوصف الحادى عشر الشكر: اعلم أن الشكر ينقسم على ثلاثة أقسام: عقد بالجنان، وثناء باللسان، ومكافأة بالإحسان، فأما العقد بالجنان، هو أن يضمر إعظام المنعم، وإعظامه، وإجلاله، والخشية له، والإقبال عليه، والعجز عن القيام بحقيقة شكره، واستكثار النعمة منه وإن قَلت، واستقلالها فى غيره وإن جلت. وأما الثناء باللسان، فهو إظهار الحمد للمنعم، والثناء عليه بما خوله من تواتر النعم، وبلوغ المقاصد، وحصول الأغراض، وغير ذلك مما خصه المنعم لخلقه، وفضله به على كثير الناس.

وأما المكافأة بالأفعال، فهى الإقبال على طاعته، والوقوف عند حدوده ومنهياته، وأن يواسى الضعفاء من نعمته، ويعمهم بعدله، ويخصهم بفضله، سيما لمن ناصح فى دولته، وأخلص فى خدمته، وصدق فى ولايته من أعوانه وخاصته، ولمن سارع فى مرضاته، وغير ذلك مما يجلب إليه المسرة، أو يدفع عنه به المضرة، فإنه إذا فعل ذلك بنية وقول وعمل، سمى شاكرًا على الحقيقة، وكان لمزيد النعمة مستحقًا، ولتابع الإحسان مستوجبًا، لقوله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد قال بعض الحكماء: لا يكون الملك شاكرًا للنعمة حتى يجتمع فيه أربعة أشياء:

المواساة فيها، والاستعانة بها على طاعة موليها، والإرشاد بها، وتيقن العجز عن القيام بحقيقة شكرها. وكان يقال: لا زوال للنعمة مع الشكر، ولا بقاء لها مع الكفر. وقيل: الشكر قيد للنعمة. وقيل: الشكر مثمر النعم، وعصمة من النقم.

وقال بعض الحكماء: من لم يشكر على الإنعام، فأعدده من الأنعام. وقال بعض ملوك الهند: خير الملوك الشكور على حسن الأعمال، والصبور على ما يحمل من الأثقال. وكان يقال: من كفر النعمة استوجب حرمان المزيد. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

من حاول النعمة بالشكر لا ... يخش على النعمة ما اغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم ... مقالة الله الذى قالها
لأن شكرتم لأزيدنكم ... لكنما كفركم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى ... زوالها والشكر أبقى لها

وقال بعض البلغاء: الشكر وإن قلّ يزيد كل نوال وإن جل، وقيل:

فلو أنه استغنى عن الشكر ماجد ... لرفعة حال أو علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه ... فقال اشكرونى أيها الثقلان

الوصف الثانى عشر الأناة: اعلم أن الأناة من أوصاف الملك، وأعظم أخلاقه وأكملها، وعلامة توفيقه؛ لأنه يتعلق بها صواب الرأى والتدبير، واتضاح الأمور فى السياسة، ولا يقترن بها زلل، ولا يعقبها ندامة ولا فشل، فقد قال رسول الله ﷺ: «التردد من الرحمن، والعجلة من الشيطان»[١].

---

(١) لم أجده بهذا الفظ، وبلفظ: «التأنّى من الله، والعجلة من الشيطان»، أخرجه ابن أبى شيبة، وأبو يعلى، وابن منيع، والحارث بن أبى سلمة، فى مسانيدهم، عن سيدنا أنس مرفوعًا، وأخرجه الحافظ البيهقى عنه أيضًا، وله شواهد عند الترمذى، وقال: حسن غريب بلفظ: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»، والعسكرى عن سهل بن سعد رفعه بلفظ: «الأناة...إلخ»، ولكن ضعفه بعضهم بأن فيه عبد المهيمن: ضعيف. ويفيد ذلك ببعض الأعمال، فروى أبو داود، عن سعد بن أبى وقاص: التؤدة فى كل شيء، إلا فى عمل الآخرة. قال الأعمش: لا أعلم أنه رفعه. وفى لفظ للحاكم، وأبى داود، والبيهقى، عن سعد: التؤدة فى كل شيء خير، إلا فى عمل الآخرة. وللمزّى فى تهذيبه فى ترجمة موسى، عن شيخة من قومه مرسلاً، أن النبىَّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «الأناة فى كل شيء، إلا فى ثلاث: إذا صيح: يا خيل الله اركبى، وإذا نودى=

وقال بعض الحكماء: على الملك أن يعمل بثلاث خصال: تأخير عقوبة من أساء العمل، وتعجيل مكافأة المحسن، والعمل بالأناة فيما حدث من الأمور، فإن له فى تاخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة إلى الطاعة من الرعية، وفى الأناة اتضاح الرأى وانفساح الجواب.

وسأل ملك من الملوك حكيمًا، فقال: أى أخلاق الملك أحمد؟ فقال: الأناة، فقال: أيها أجلب لمودة الرعية؟ قال: الكرم، قال: فأى الملوك أخرق؟ قال: أسرعهم عقوبة للرعية، قال: فأى الخلال أجمع للمحامد والمناقب؟ قال: العدل. ويحكى أن علىَّ بن أبى طالب، رضى الله عنه، سأل كبيرًا من كبراء فارس، فقال: أى ملوككم كان عندكم أحمد سيرة؟ قال: أزدشير، له فضيلة السبق فى المملكة، غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان، قال: فأى حالة كانت أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة.

الوصف الثالث عشر الحلم: اعلم أن الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب[١]، وهو خليق بالملك؛ لما فيه من الراحة، واستلزام الحمد، وحسن العاقبة، ورضى الخالق، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الحليم، ويبغض الفاحش»[٢].

وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: من حلم زاد، ومن فهم ازداد. وقال بعض العلماء: كل ملك لا يجتمع فيه ثلاث قوات فملكه مسلوب، القوة الأولى قوة الحلم وثمرتها العفو، الثانية قوة حفظ الرعية وثمرتها عمارة المملكة، القوة الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات، وفى الجند الإقدام. وكان يقال: آكد أسباب الحلم رحمة الجهال.

وقال معاوية: إنى لأرى أكبر ذنب أن يكون ذنب أوسع من حلمى. وكان يقال:

=بالصلاة، وإذا كانت الجنازة»، وللترمذى، عن الخليفة على، عليه السلام، عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا تؤخروها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤًا».

وللغزالى عن حاتم الأصم، قال: العجلة من الشيطان، إلا فى خمسة، فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إطعام الطعام، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب، قاله الحافظ العجلونى فى كشف الخفاء (١/٣٥٠) برقم (٩٤٣).

(١) هكذا عرفه الشيخ الماوردى. انظر: أدب الدنيا والدين (ص١٣٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/٣٦٠) ح (١٠٢٤).

ليس الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر عفى. وقد حفظ من وصية أنوشروان لولده: يا بنى، من أخلاق الملوك الحلم، وعزة النفس، وإنك ستبلى بمداراة قوة، وإن سفه السفيه ربما بلغك، فإنك إن كافأته بالسفه، فكأنك رضيت بما عنى، فاجتنب أن تحتذى عليك مثاله، وإن كان سفه السفيه عندك فحقق ذمك إياه بترك معارضته.

ويحكى أنه قيل للإسكندر: إن فلانًا وفلانًا يسبانك، فلو عاقبتهما لانزجرا، فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى سبى. وقال الأحنف بن قيس: ما جهل علىَّ أحد إلا أخذت فى أمره بأحد ثلاث خصال: إن كان أعلى منى عرفت له قدره، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه، وإن كان نظيرى تفضلت عليه، فأخذ محمود الوراق هذه المعنى ونظمها شعرًا:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن عظمت منه علىَّ الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الحلم بالفضل حاكم

وأنشدنى بعض أهل العلم:

وجهل رددناه بفضل حلومنا ... ولو أننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة ... وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال عبيدة بن عاصرة:

وإنا وإن كنا سنة قومنا ... وكان لنا فيهم مقام مقدم
لنصفح عن أشياء منهم تسوءنا ... ونضرب عن ذى الجهل منهم ونحلم
ونكلؤهم بالغيب منا حفيظة ... وأكبادنا وجدا عليهم تضرم
ولا نسأم النعماء منا إليهم ... وإن كثرت حتى يملوا ويسأموا
وليس بمحمود من الناس من جزى ... بسيئة يأتى المسيىء الملوم
سأحمل عن قومى جميع استياءهم ... وأدفع عنهم كل ضيم وأغرم

واعلم أن كمال العقل وشرف النفس وعلو الهمة على الحلم عند هيجان الغضب

لأسباب أربعة، أحدها الترفع عن السفيه ممن له خدمة سالفة، وحرمة لازمة، فيراعى منه ذلك، فيحلم عنه لأجله، الثانى الرحمة له والرأفة به لضعفه عند القدرة عليه، الثالث أن يتألفه بالحلم ويتفضل عليه به، الرابع الاستحياء من الله تعالى ومن الحاضرين أن يجيب السفيه بسفه مثله، وينبغى للملك أن يعرض على نفسه هذه الأسباب عند هيجان الغضب ليجلب إليه الحلم واحد منها.

واعلم أن الحلم ليس بمحمود فى كل المواطن؛ لأنه قد يطرأ على الملك من الأمور ما يكون الحلم معها مفسدة، والتراخى عنها مضرة؛ لأن الرعية على قسمين: قسم لا يخشى فسادهم، ولا يضر ما صدر عنهم، فإطراح الملك لهم والترفع عن مجازاتهم أليق، والاستهانة بهم أصوب، وقسم لا يمكن إهمال أمرهم، فردعهم بالأفعال الزاجرة أولى بالملك من الحلم عنهم حتى لا يزدادوا شرًا وتمردًا.

وقد سأل يزيد بن معاوية أباه، فقال: يا أمير المؤمنين، هل ذممت عاقبة حلم قط، أو حمدت عاقبة إقدام قط؟ فقال: ما حملت على لئيم قط وإن كان وليًا إلا أعقبنى ذمًا، ولا أقدمت على عقوبة كريم قط وإن كان عدوًا إلا أعقبنى أسفًا.

وقال بعض الحكماء: إن الحلم يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم. وقال بعض أهل العلم: ليس الحلم بمحمود فى كل المواطن، كما أن الجهل ليس بمذموم فى جميع الأحوال، ولهذا شعر:

لئن كان حلم المرء عون عدوّه	عليه فإن الجهل عن ذاك أروح
وفى الحلم ضعف والعقوبة قوة	إذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

وقال إبراهيم بن المهدى:

إذا كنت بين الحلم والجهل مائلاً	وخيرت أيما شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفًا	ولم يرض منك الحلم فالجهل أفضل

وينبغى للملك أن يتلطف فى تدبير من هذه صفته على وجه يحصل به الردع والزجر من غير مبالغة فى النكاية على ما تقتضيه المصلحة فى تدبير السياسة.

الوصف الرابع عشر العفاف: اعلم أن العفاف هو ضبط المملكة والنفس عن الرذائل، وكف الجوارح عن الأذى، وذلك غاية السؤدد، وكمال المروءة، وختام مكارم

الأخلاق. قالت عائشة، رضى الله عنها: كانت الجاهلية لا يسودون إلا رجلاً يجتمع فيه ست خصال، ثم زادت فى الإسلام خصلة فصارت سبعًا: السماحة، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع، وتمامهن فى الإسلام العفاف.

وكان يقال: من عف فى ماله، وعدل فى سلطانه، حشر مع الأبرار. وقد قدمنا فى صدر الكتاب أن من لم يقدر على ضبط نفسه من الرذائل، لم يقدر على ضبط حواسه وهى خمسة، ومن لم يقدر على ضبط حواسه، لم يقدر على ضبط خاصته، ومن لم يقدر على ضبط خاصته وهم نصب عينيه، لم يقدر على ضبط رعيته وهم فى أقاصى بلاده، فإذا عف نفسه وجوارحه، فقد انتظم أمر مملكته فى دنياه، وينقلب إلى الملك الدائم فى عقباه، فأما إعفاف الجوارح، فهو أن يعف بصره عن النظر إلى المحارم، وأن يترك ما حجب عنه ونهى؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركه من خوف الله، أتاه الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه»(١).

وقال أبو الدرداء، رضى الله عنه: من غض بصره عن نظر الحرام، زوجه الله من الحور العين حيث أحب، ومن اطلع فوق بيت من بيوت الناس حشر يوم القيامة أعمى، ثم يعف سمعه من كلام الناس القبيح، والغيبة، والنميمة، وسماع المحرم من الملاهى، وينزه مجلسه عن جميع ذلك، فقد قال عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما: نهينا عن الغيبة والاستماع إليها، والنميمة والاستماع لها. وقال ﷺ: «من استمع إلى فتنة، صب فى أذنه الأنك يوم القيامة»(٢).

ثم يعف لسانه عن قول الكذب، والغيبة، والنميمة، والسخف من الكلام، فقد قال رسول الله ﷺ: «من ضمن لى ما بين لحيتيه وما بين رجليه، ضمنت له على الله الجنة»(٣)، وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل، رضى الله عنه: «وهل يكب الناس على

---

(١) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١/١٩٥) ح (٢٩٢)، والطبرانى فى الكبير (١٠/١٧٣) ح (١٠٣٦٢)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه عبد الله بن إسحاق الواسطى، وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٨/٦٣).

(٢) عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعًا: «من استمع إلى حديث قوم يفرون منه، صُبّ فى أذنه الأنك»، أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤/١٩١) ح (٤٧٧٢). وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعًا: «من استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، صب فى أذنه الأنك يوم القيامة»، قال سفيان: الأنك الرصاص. أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤/٢١٣) ح (٤٨٢٩).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣/٤١٢) ح (٤٩٨١)، وفى الصغير=

مناخيرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم»[(١)].

ثم يعف يده، ولا يتناول بها إلا ما يحل له من أموال الرعية، ولا يبسطها إلى محذور فى عقوبة، ولا نكاية محرمة فى حد ولا تعذير، فقد قال رسول الله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»[(٣)].

ثم يعف رجليه، فلا يسعى إلى مكروه، فقد قال مسروق: ما خطا العبد خطوة إلا كتب له بها حسنة أو سيئة. ثم يعف فرجه عن مقاربة الزنا، وذلك أصل العفاف، وتمام المروءة، وحصانة الدين، وقال رسول الله ﷺ، الحديث المتقدم، فإذا فعل جميع ذلك كان عفيفًا، وكان للسيادة مستحقًا.

الوصف الخامس عشر الوقار: اعلم أن وقار الملك وسياسته وسكينته من أعظم سياسة المملكة؛ لما يتعلق به من إظهار الهيبة، وتعظيم الحرمة، وقيام الأبهة، وإرهاب العدو وأهل الزعارة، وسنوضح ذلك إن شاء الله فى الباب السابع، وهذه أصول مكارم الأخلاق ومحاسنها التى تقوم بها السياسة، وتدوم بها الرئاسة، وسنزيدها إيضاحًا بذكر قبائح أضدادها فى الباب السادس إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس

فى معرفة الأوصاف الذميمة والنهى عنها

لما ذكرنا من مكارم الأخلاق أوصافًا جميلة، وأخلاقًا حميدة، يزداد المتصف بها إجلالاً وتعظيمًا، أحببنا أن نوضح ما ذكرنا من محاسنها بشرح قبائح أضدادها المذمومة

=(٢٦٧/١)، وفيه المغيرة بن سقلاب، ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠).

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤٤٧/٢) ح (٣٥٤٨) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٣٢٠/٥) ح (٢٦٤٩٨)، والطبرانى فى الأوسط (٣٣٢/٥) ح (٧٥٠٣)، والبزار فى مسنده (٢٧٣/٦) ح (٢٣٠٢)، وقال البزار: إسناده حسن، ومتنه غريب. انظر: مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠).

(٢) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١٣٧/١) ح (١٧٧).

(٣) لم أجده فى مظانه والتقصير منّا

الخارجة بالنفس من حد الاعتدال إلى ما يعقبها من الأضداد فى أشنأ حال، ونختم هذا بذكر أعراض رديئة ربما عرضت للملك، فأخرجته عن قانون الاعتدال، وهى خمسة عشر وصفًا، وثلاثة أعراض، أما الأوصاف، فهى: الجور، والجهل، والبخل، والسرف، والخلف، والكذب، والغيبة، والغضب، والعجب، والكبر، والحسد، والعجلة، والمزاح، والضحك، والغدر، وأما الثلاثة الأعراض، فهى: الهم، والغم، والسكر.

الوصف الأول الجور: اعلم أن الجور هو العدل عن الحق، واستمراره يخل نظام الطاعة من الرعية، ويبعثهم على ترك المناصحة، وعدم النصرة، ويحملهم على نصب الغوائل، وتربص الدوائر، وليس شىء أصدع منه فى خراب الأرض، ولا أفسد منه لضمائر الخلق؛ لأنه ليس يقف على نهاية، ولا ينتهى إلى غاية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه»[١]، وقال: «لن تهلك الرعية وإن كانت ظالمة أو مسيئة إذا كانت الولاة هادية منها، وتهلك الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الولاة ظالمة مسيئة»، وقال، عليه السلام: «قال الله: لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن يرى مظلومًا فقدر على أن ينصره فلم يفعل»[٢]، قال عليه الصلاة والسلام: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»[٣].

وقال بعض الحكماء: الملك يبقى على الكفر، ولا يبقى على الجور. وقال حكيم آخر: الجور مسلبة النعم، والبغى مجلبة النقم. وقال أفلاطون: بالعدل ثبات الأشياء، وبالجور زوالها. وقال أيضًا: إياكم والجور، فإنه أداة العطب، وعلة خراب البلاد.

ويحكى أن الرشيد حبس أبو العتاهية، وأقسم أن لا يخرجه من حبسه، فبقى فى السجن مدة طويلة، فلما ضاق به الأمر كتب على حائط الحبس هذه الأبيات:

أما والله إن الظلم شؤم ... وما زال المسيىء هو الظلوم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم
إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

---

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف جدًا، أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٠/١) ح (٣٦)، وفى الكبير (٢٧٨/١٠) ح (١٠٦٥٢)، وفيه شيخ الطبرانى أحمد بن محمد بن يحيى. قال الذهبى: له مناكير. وقال الحافظ الهيثمى: فيه من لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٦٧/٧).

(٣) تقدم أنى لم أجده.

قال: فأخبر الرشيد بذلك، فبكا وأحضر أبا العتاهية، ووهبه ألف دينار، وكفر عن يمينه، وأنشدني بعضهم شعرًا:

عليك بالعدل إن وليت مرتبة ... واحذر من الجور فيها غاية الحذر
فالملك يبقى على الكفر البهيم ولا ... يبقى على الجور فى بدو ولا حضر

وقال بعض الحكماء: ليس للجائر جار، ولا يعمر له دار. وقال حكيم آخر: أقرب الأشياء صرعة الظلم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم(١)، وقال بعضهم شعرًا:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم مرتعه يدعو إلى الوخم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويحكى أن يزدجر الأثير لما كثر عسفه لرعيته، واشتد جوره عليهم باغتصاب الأموال وإهانتهم بالعذاب، وطال ذلك عليهم، اجتمع جماعة من المظلومين فى بعض الهياكل، ثم دعوا إلى الله سبحانه وتعالى أن يريحهم منه، فمكث بعد ذلك خمسة أيام، أو سبعة أيام، فجاءه صاحبه وأخبره أن فرسًا مستوحشًا جمع محاسن صفات الخيل، قد جاء يشتد عدوًا حتى وقف على باب الملك، وقد تهيبه الناس، فلم يجترئ أحد عليه، وقد نفرت منه الخيول، فلم تقرب منه، فلما سمع بذلك يزدجر خرج من قصره، فرأى من الفرس منظرًا عجبًا، فدنا يزدجر منه، فخضع له الفرس، فخامره الإعجاب بنفسه، فأمسك بناصيته، ومسح وجهه، ثم أمر بإسراجه، فجمح به وسبق الأبصار عدوًا، حتى أتى البحر فاقتحمه به، فكان ذلك آخر ما علم من خبره.

وقد يعلم قبح الجور عقلاً وشرعًا، فيجب اجتنابه والوزع عنه؛ لما فيه من اختلال الرعية، واضطراب الدولة، وخراب البلاد، وعذاب الآخرة.

---

(١) وقال الشيخ سفيان الثورى، رحمه الله: لأن تلقى الله بسبعين ذنبًا بينك وبينه، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين الناس. وفى الخبر: أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: قل للظلمة لا يذكرونى، فإن ذكرى عليهم وبال، قال موسى: يا رب، ومن الظلمة؟ قال: الذين يظلمون الناس فى أموالهم، يا موسى، بنفسى حلفت أن أبواب السماوات مغلقة دون من أكل الحرام، وإنى لآمر ملائكتى يبادرون فى حوائجهم إذا غضبت عليهم، قال موسى: يا رب، كيف تعطيه وهو مجرم؟ قال تعالى: أبغض دعوته، فأسرع فى حوائجهم كى لا يدعونى.
انظر: الزاهر فى بيان ما يجتنب من الكبائر والصغائر لابن فرحون (ص١٧٣) (بتحقيقنا/ دار الكتب العلمية).

الوصف الثانى الجهل: اعلم أن الجهل من الأوصاف الذميمة، والأخلاق الرديئة، لاسيما بالملوك، فإن صاحبه لا يعرى عن القبيحة، ورأيه أبدًا فى ضلال، وتدبيره فى وبال، يقترن به الزلل، ويحيط به الفشل. وقال بعض الحكماء: الجهل مطية من ركبها ذل، ومن صحبها ضل. وقال آخر: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل. وقيل: الجاهل يعتمد على أمله، والعاقل يعتمد على عمله. وقيل: نظر الجاهل بعينه وناظره، ونظر العاقل بقلبه وخاطره.

واعلم أن للجهل أوصافًا تظهر عليه خصالاً ترشد إليه، فمن ذلك: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للجاهل خصال يعرف بها: يظلم من خالطه، ويعتدى على من دونه، ويتطاول على من فوقه، ويتكلم من غير تدبر، إن عرضت عليه فتنة أرضته، وإذا رأى فضيلة أعرض»[1]. وقال بعض العلماء: ستة يعرف بها الجاهل: الغضب فى كل شيء، والكلام من غير نفع، والعطية فى غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل واحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوه.

وحكى صالح بن حسان، قال: كان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، صديقًا للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان عبد الله يأتى إليه، فتخاليا يومًا يلعبان بالشطرنج، فأتاه الحاجب، فقال: إن بالباب رجلاً سيدًا من أخوالك من ثقيف، قدم غازيًا، وقد أحب التسليم عليك، قال: دعه ساعة حتى نفرغ من دستنا، قال عبد الله: وما عليك ذلك إن حضر؟ ائذن له، قال: لما علمت أنك مغلوب أردت أن تخبط الطابق؟ قال عبد الله: فاطلب منديلاً وضعه عليها حتى يدخل الرجل فيسلم عليك، ثم نعود إلى الدست، ففعل ذلك، ثم قال: ائذن له، فدخل رجل مشتمر عليه هيئة حسنة، وعليه عمامة فاخرة، وبين عينيه أثر السجود، وقد خضب لحيته بالحناء، فقال: أصلح الله الأمير، قد قدمت غازيًا، فكرهت أن أجاوزك حتى أقضى حقك، قال: حياك الله وبارك فيك، ثم سكت عنه ساعة.

فلما أنس به أقبل عليه الوليد، وقال: يا خال، هل جمعت القرآن؟ قال: قد كانت شغلتنا عنه شواغل، قال: فهل حفظت منه شيئًا؟ قال: قد كانت أموالنا شغلتنا عن ذلك، قال: فأحاديث العرب وآدابها وأشعارها؟ قال: لا؛ لأنى كنت فى شغل عن ذلك، قال: فأحاديث العجم وآدابها؟ قال: إن ذلك لشيء ما طلبته، قال: فهل عرفت

(١) لم أجده فى مظانه، والتقصير مِنا.

من أقوال الشعراء والحكماء وسير الملوك ما تسوس به قومك؟ قال: لا، إن ذلك لشيء لم أكن أبحث عنه، قال: فاستدار الوليد ورفع المنديل، فقال عبد الله: سبحان الله، قال الوليد: لا تستح منه، فإنه لم يكن معنا فى البيت إنسان، فلما خرج ذلك الرجل، قال الوليد: أما علمت أن الجهال كالأنعام لا يستحى منهم.

الوصف الثالث البخل: اعلم أن البخل من أذم الخلق، وأنكر الطرق، نهى عنه الشرع، وقضى بقبحه العقل، وحقيقته منع الحقوق الواجبة، وتقتير النفقات المستحقة، وفى العرف والعادة هو خزن المال، ومنع المستوفدين من فضوله، واعلم أن البخيل لا يزال مسلوب الهيبة، مفقود الوهبة، ثقيلاً على النفوس، بغيضًا إلى القلوب، ترمقه الأبصار بالاحتقار وبقلة الوقار، وذلك أن البخل يدعو إلى الكدح وحزن المال، ويمنعه من إيصال الحقوق إلى أهلها، وهو يغطى الفضائل، ويظهر الرذائل، وفى المعنى شعر:

ويظهر عيب المرء فى النفس بخله ... ويستره عنهم جميعًا سخاؤه

تغطى بأثواب السخاء فإننى ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقد ينتج من البخل أربعة أخلاق مذمومة، كل خلق منها فى نهاية القبح، وهى: الحرص، والشره، وسوء الظن بالله، ومنع الحقوق، أما الحرص، فهو شدة الكدح فى الطلب، والمبالغة فى جمع المال، وهذا ربما أفضى بصاحبه إلى اقتحام الحرام، وأخذ الشبهات، فكان مذمومًا، وأما الشره، فهو استقلال الكفاية، واستكثار المال بغير حاجة، وذلك مذموم، وأما كونه يسئ الظن بالله تعالى، فإن البخيل يعتقد أن المال يذهبه الإنفاق، وليس خلف من الله تعالى، ولا عوض يرجع إليه، فيؤدى إلى عدم الثقة بالله تعالى، وذلك غاية المذمة والقبح.

وأما منع الحقوق، فإن البخيل لا تسمح نفسه بفراق المال إذ هو محبوبها، ونهاية مطلوبها، فلا تنقاد إلى إيصال الحق، ولا تذعن باتصال الخلف، وإذا كان البخيل بهذه الأوصاف، فليس عنده خير موجود، ولا صلاح مأمول، وقد قال رسول الله ﷺ: «السخى قريب من الله، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار»[1].

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذى فى البر والصلة (٣٤٢/٤) ح (١٩٦١)، وقال: حديث غريب لا نعرفه من حديث يحيى بن سعيد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، إلا من حديث سعيد بن=

وأما أقوال الأنبياء، فمن جملتها قول بعضهم، عليهم السلام: طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء، وقالوا: بشر مال البخيل بحادث أو وارث، ولأهل العلم شعر:

يفنى البخيل بجمع المال مدته   وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها   وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ويقال: البخل جلبات المسكنة. وقال حكيم آخر: لا يدخل البخل مسكنًا إلا أعقبته الحسرة، ولا يدخل الطمع مدخلاً إلا أعقبته المذلة، ولا يدخل الشره مدخلاً إلا أعقبته الحيرة. وقيل: البخيل ليس له خليل. وقيل: المال كالماء، فمن استكثر منه ولم يجعل له مسربًا يتسرب فيه ما زاد عن القدر الكافى أغرقه، ولأهل العلم شعر:

أراك تؤمل حسن الثنا   ء ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو فطنة   يمن كثيرًا ويعطى قليلا

الوصف الرابع السرف: اعلم أن السرف فى إنفاق المال وصف خارج عن حد السخاء المحمود، مجانس البخيل فى الذم والقبح؛ لأن الله سبحانه وتعالى ساوى بين حالتها فى النهى، فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، فنهى عن بسطها سرفًا، كما نهى عن قبضها بخلاً، فيدل ذلك على استوائهما واتفاقهما لومًا، ولأن المسرف فى إعطائه المبذر فى سخائه، لا يفرق بين محمود ومذموم، ولا يميز بين مستحق ومحروم، وهذه الحالة تدل على الطبع المذموم، وطيش الرأى، وقصور التدبير، وذلك لا يليق بالملوك؛ لأن بيت المال يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، إذا أسرف فى بذله، فقد وضع الشىء بزيادته على قدر المستحق.

وقال بعض الحكماء: الخطأ فى إعطاء ما لا ينبغى، ومنع ما ينبغى. وقال سفيان الثورى، رحمه الله: الحلال لا يتحمل الإسراف. وقال بعض العلماء: ثلاثة تمنع عنهم الرحمة، وتنزل بهم الشماتة فى ثلاثة أحوال، أحدهم المبذر فى ماله عند نزول الفاقة به،

=محمد، وقد خولف سعيد بن محمد فى رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، إنما يروى عن يحيى بن سعيد، عن عائشة، شىء مرسل. وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢/٢٢) ح (٢٣٦٣)، والعقيلى فى الضعفاء الكبير (١١٧/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٢٣٨/٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٢٨/٧، ٤٢٩) ح (١٠٨٤٩)، وفيه سعيد بن محمد الوراق الثقفى أبو الحسن الكوفى، ضعيف. انظر: التقريب (ت٢٣٧٩).

الثانى الشره إليه حين تصيبه المصيبة، الثالث الظالم المعتدى حين تنزل به العقوبة، ولهذا المعنى شعر:

وكان المال يأتينا وكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حيث كان لنا فضول

الوصف الخامس خلف الميعاد: اعلم أن خلف الميعاد يتصف به اللئام، وتأباه الكرام لقبح صورته، وشناعة سمعته، وهو من أركان النفاق، ومساوىء الأخلاق، قال رسول الله ﷺ: «علامة المنافق ثلاثة: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف». وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر بن عبد العزيز لا يكاد يعد بحاجة توقيًا للخلف، فإنه يزيل الهيبة. وقال داوود بن عبد الله فى وصيته: انجز إذا وعدت، واتق الخلف، فإنه يزيل الهيبة، ويذهب بهاء الوجه. وقال بعض الحكماء: من أخلف وعده فقد صعر خده، وجفاه القريب، وتوقاه الغريب، ولهذا شعر:

لا تكسبن عداوة ومودة بعد الصفا
فخلف وعد مرة أصل العداوة والجفا

إن الخلف من فروع الكذب، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الوصف السادس الكذب: اعلم أن الكذب وصف ذميم، وخلق لئيم، لا ينفك صاحبه عن الفضيحة لمناقضة كلامه بالسهو، ولا يكون لمقامه رتبة، ولا تعلو له منزلة، لاحتقار الناس له، واستصغارهم إياه، ونفورهم عنه، وقلة ركونهم إليه؛ لأنه إن عاقد لم يوثق بعهده، وإن وعد لم يركن إلى وعده، وإن ذكر شيئًا تسارعت إليه التهمة، وإن نزل به مكروه تراجعت عنه الرحمة، كل ذلك لما قد علمته النفوس من مهانته وقلة أمانته، وإن كان صادقًا، وفى المعنى بيت مفرد:

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان صادقا

وقد سلب الله تعالى الكذب عن المؤمنين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال رسول الله ﷺ: «الكذب مجانب الإيمان»[١]. وكان

(١) الصحيح أنه موقوف: من قول الخليفة أبى بكر، رضى الله عنه. أخرجه: أبو عبد الله المقدسى فى الأحاديث المختارة (١/١٤٤ - ١٤٦) ح (٥٨)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/١٩٦) ح (٢٠٦١٥)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٥/٢٣٦) ح (٢٥٦٠٢)، والإمام أحمد فى مسنده=

يقال: الكذب لا يقوم دينًا ولا دنيا. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: إياك أن تستعين بكاذب فى أمر يحتاج فيه إلى الجميلة، فإنك إن تطع الكذوب تهلك. وقال عبد الله بن مروان: الكذب فساد كل شىء.

وحكى أن قيصر كتب إلى كسرى: أن عرفنى بما ضبطت به ملكك؟ فكتب إليه: بثمان خصال، لم أكذب فى جد ولا هزل قط، ولم أخلف فى وعد ولا وعيد قط، وركنت للعقل لا للهوى، وعاقبت للأدب لا للغضب، وأشربت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة، وأودعت قلوبها هيبة من غير ضغينة، وعمرت بالكفاف ومنعت الفضول.

وقيل: تعدى ابن أبى حاتم على رجل من أهل الفضل، وسأله: أى الأشياء أثقل عليك؟ قال: عداوة الصديق، ورد السائل، قال: فأى الأشياء أوضع للرجال؟ قال: كثرة الكلام، والثقة بكل أحد، واللسان الكذب. وقيل: الصدق عز، والكذب ذل وإهانة للنفس. وكان يقال: الكذب من ذهاب المروءة، وإهانة النفس، وقلة الحياء، ولهذا شعر لأهل الفضل:

لا يكذب المرء إلا من إهانته ... أو عادة سوءها من قلة الأدب
فجيفة الكلب عندى خير رائحة ... من كذبة المرء فى جد وفى لعب

وقال غيره:

وما شىء إذا فكرت فيه ... بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لا خير فيه ... وأبعد بالبهاء من الرجال

واعلم أن دواعى الكذب ثلاثة أشياء: أحدهما: أن يجتلب به نفعًا، أو يدفع به ضررًا، فيرى أن الكذب أسلم له وأغنم، فيرخص لنفسه فيه لأجل ذلك، الثانى: أنه يؤثر أن يكون حديثه من الصدق مستغربًا، وكلامه مستطرفًا، ولا يجد فيما يزين به حديثه من الصدق، فيستعير الكذب، الثالث: هو أن يقصد بالكذب وصمة بغيض، فيسمه بالقبائح، وينسب إليه الفضايح، وهذه الدعاوى تأباها النفوس الأبية، والهمم العلية،

=(١/٥) ح ب١٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٠٧/٤) ح (٤٨٠٧). والعدنى فى الإيمان (١٢٣/١) ح (٥٥)، وعبد الله بن أحمد فى السنة (٣٦٤/١) ح (٧٨٦)، وابن المبارك فى الزهد (٢٥٥/١) ح (٧٣٦)، والقرشى فى مكارم الأخلاق (٤٧/١) ح (١٢١)، وابن عبد البر فى التمهيد (٤٠/١). وانظر: علل الدارقطنى (٢٥٨/١) ح (٥٠).

سيما نفوس الملوك؛ لشرفها عن الرذائل، وترفعها عن النقائص، إلا أنه ربما مست الحاجة إلى استعمال قليل الكذب فى كيد الأعداء، وتألف البعداء، فإن مثله مثل سم يقتل بانفراده، ويدخل فى بعض الأدوية المركبة، فتصير دواء شافيًا[١].

الوصف السابع الغيبة: اعلم أن الغيبة مع تحريمها شرعًا[٢] وعقلاً، هى عين العجز واللؤم، ودليل النقص، تأباها العقول الكاملة، والنفوس الفاضلة؛ لما فيها من انحطاط الرتبة، وانخفاض المنزلة. قال علىّ بن أبى الحسين: الغيبة أدام كلاب الناس. وقال عدى بن حاتم: الغيبة مرعى اللئام. قال: وسمع قتيبة بن مسلم رجلاً يغتاب رجلاً، فقال: أما والله لقد تلمظت بمضغة طال ما لفظتها الكرام. وقال بعض الحكماء: من أكثر من عيوب الناس، سهل عليه الإكثار، وإنه إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، وأحسن القائل:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا ... عليك وأبدوا منك ما كنت تستر
إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلا دون عيبك يذكر
فإن عبت قومًا بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الناس والله أكبر
وإن عبت قومًا بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب العور من هو أعور

وقال الوليد بن عقبة بن أبى معبد: كنت أسير مع أبى فى موكبه، فلصق إلىّ رجل، وجعل يغتاب رجلاً غائبًا، فسمعه أبى، فالتفت إلىّ، وقال: ويحك، أما علمت أن الملوك ينزهون أسماعهم عن الخنا، كما ينزهون ألسنتهم عن الكلام به، فإن المستمع شريك القائل، ولقد نظر إلى حيث ما فى وعائه، فأفرغه فى وعائك. وحكى أن يهرام ملك العجم ولى قائدًا من قواده نحو أرض مما يلى أرض الترك، فبلغه عنه أنه يكثر من غيبة خاقانه، فقال: هذا دليل عجزه وضعفه عن مقاومته، ثم عزله وولى غيره. وقال أبو

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٤٤ - ١٤٩)، الزاهر لابن فرحون (ص٢٠٧ - ٢١٤).

(٢) فقد عظم الله تعالى أمر الغيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قال: معناه الطاعن فى الناس، الذى يأكل لحوم الناس.
وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فقيل: هؤلاء الذين يغتابون الناس»، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨)، وإسناده حسن.

الأسود فى المعنى شعرًا:

وذى حسد يغتابنى حيث لا يرى مكانى ويثنى صالحًا حيث يسمع
تورعت أن أغتابه من ورائه بما ليس فيه وهو لا يتورع[(١)]

الوصف الثامن الغضب: اعلم أن الغضب وصف طبيعى ركبه الله فى الحيوان ليكون له به الانتقام من المؤذى له، وسببه هجوم ما تكرهه النفس ممن هو دونها، والحادث عن الغضب السطوة والانتقام، فإذا أفرط وجاوز حده، سلب العقل، وحجب عن صواب الرأى، فيصير الرأى وصاحبه مقطوع الحجة، قليل الحيلة، وربما عاد ضرر الغضب ونكايته على الغضبان دون المغضوب عليه، وقد يظهر ذلك فى نفسه وجسده، والعاقل فى حال شدة غضبه ليس بينه وبين المجنون فرق، وبهذه الأوصاف صار قبيحًا مذمومًا. قال ﷺ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»[(٢)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من ملك نفسه عند الغضب»[(٣)]. وقال عليه السلام: «من كظم غيظًا وهو قادر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا»[(٤)].

وقال بعض الحكماء: الغضب أوله جنون وآخره ندم[(٥)]. وقال آخر: الغضب على من لا يملك عجز، وعلى من يملك لوم. وكان يقال: ما كثر من كثره الغى، ولا قوى من قوّاه الظلم، ولا ملك من ملكه الغضب. وكان يقال: ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من حاجته، وليس له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يكون حقودًا؛ لأن خطره عظيم عن المجازات.

واعلم أن الذين كان منهم الفعل القبيح لشدة الانتقام فى وقت غيظهم، إنما كان ذلك الوقت، فينبغى لمن ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب أن يكف ثورته بحزمه،

---

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص٢١٥ - ٢٢٠) (بتحقيقنا/ دار الكتب العلمية).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩/ح١٠٠٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٢٩٤)، وفيه: مخيس بن تميم، مجهول.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) إسناده ضعيف جدًّا: أخرجه الخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٣٣٨) من حديث عبد الجليل الفلسطينى، عن عمه مرفوعًا، وفيه داود بن قيس، متهم، وعبد الجليل، قال البخارى: لا يتابع عليه. انظر: الميزان (٢/٥٣٥).

(٥) وقال أحد الحكماء: من لم يملك عقله لم يملك غضبه. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٦٨).

ويطفئ ناره بحلمه ليسلم من الندم فى العواقب، والذى يسكن الغضب عند هيجانه خمسة أسباب:

أحدها: أن يذكر الله تعالى عند غضبه، فإن ذلك يدعوه إلى الخوف منه، والخوف يبعثه على الطاعة أو بالعفو، فيزول عنه الغضب، فقد ذكر أنه مكتوب فى التوراة: يا ابن آدم، اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب. وقيل: إن ملكًا من ملوك الفرس كتب كتابًا وناوله لوزيره، وقال له: إذا رأيتنى غضبت فاتركه بين يدى، وكان فيه مكتوب: ما لك وللغضب، إنما أنت بشر، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء، قال: فكان إذا غضب ذلك الملك، ناوله الوزير ذلك الكتاب، فيسكن غضبه.

السبب الثانى: أن يتذكر عند الغضب ثواب العفو، وحسن جزاء الصفح، فيقهر نفسه على ردع الغضب رغبة فى الثواب، وما وعد الله به العافين عن الناس، فقد قال رسول الله ﷺ: «ينادى مناد يوم القيامة: من له أجر على الله تعالى فليقم، فيقوم العافون عن الناس»، ثم تلا: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الشورى: ٤٠](١).

الثالث: أن يتذكر انعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه عند العفو وكظم الغيظ، فيمنعه الثناء بالجميل من مطاوعة الغضب.

الرابع: ينتقل من الحالة التى عليها إلى حالة أخرى، فإنه إذا فعل ذلك زال عنه، وكان هذا شعار المأمون إذا غضب.

الخامس: أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام، لاسيما إنفاذه فيمن لا يستطيع الدفع عن نفسه، فهذه الأسباب الخمسة إذا تدبرها الملك وتذكرها فى أوقات الرضى، كان أحرى أن يتصورها فى أوقات الغضب، فيصده عن إنفاذ الفعل والإفراط فى النكال والانتقام(٢).

الوصف التاسع العُجب: إن العجب وصف ردىء يسلب الفضائل، ويجلب الرذائل، ويظهر الحمق، ويجلب المقت، ويخفى المحاسن، ويشهر المساوىء، ويفضى إلى

---

(١) عزاه الحافظ السيوطى لابن مردويه، عن ابن عباس، مرفوعًا بلفظين. انظر: الدر المنثور (٧٠٩/٥).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٤١ - ١٤٤)، الزاهر لابن فرحون (ص١٦٤ - ١٦٨).

المهالك[1]، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب.

وقال بعض الحكماء: إعجاب المرء بنفسه أحد حساد عقله. وقال آخر: العجب فضل حمق وتيه ينتجها الكبر. وكان يقال: ما أعجب بنفسه عاقل؛ لأن العجب فضل حمق لم يدر صاحبها أين يذهب به، فصرفه إلى الكبر. وحكى أن رجلاً نظر إلى المهلب ابن أبى صفرة وعليه حلة فاخرة يسحبها ويمشى بالخيلاء، فقال له: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله؟ فقال له المهلب: أو ما تعرفنى؟ قال: بلى أعرفك، أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، وحياتك فى ما بين ذلك بول وعذرة، قال: فخجل المهلب وأطرق منه حياء، وقد نظم هذا الكلام محمود الوراق، فقال:

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذره
وفى غد بعد هيبته ... يصير فى الحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين جنبيه يحمل العذره

وقال بعض الحكماء: عجب الملك بتدبيره مفض إلى تدميره. وأنشدنى بعضهم:

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ... ولم يأت من أمره مأمنه
وأعجب بالعجب فاقتاده ... وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره ... سيضحك يومًا ويبكى سنه

واعلم أن من يحجب عنه أسباب العجب المغضبة وقع فيه، فيهلك فى غالب الأحوال، ومن أقوى أسبابه مدح المتملقين الذين يجعلون التملق دأبهم، والنفاق دينهم، فيمنع نفسه من تصديق المدح، ومتى كثر المدح وجاوز الحد صار كذبًا وملقًا، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «إياكم وكثرة المدح، فإنه الذبح».

---

(١) حقيقة العجب هى استعظام النفس خصالها، وأنها أهل لكل فضيلة، ومستحقة لكل نعمة، مع الأمن من زوالها، وقلة الشكر لمن وهبها إياه، ويبعث ذلك على استحقار الناس، بأن يرى نفسه خيرًا من أحدٍ من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولعله يصيب من العمل مثلما يصيبه، ولعله يكون أورع منه عن ما حرم الله تعالى، وأزكى منه عملاً. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٥٠).

وقال بعض الحكماء: من رضى أن يمدح بما ليس فيه، أعان الساخر منه. وقال بعض العلماء: قبيح باللبيب أن يعجب بنفسه عند مدح المادح، أو يغضب عند سماع القادح قبل أن يتفقد أعماله، ويعلم ما عليه وما له، وألا يصير النساء أعقل منه، فإن إحداهن إذا وصفت وجهها بما تحب أو تكره، امتحنت ذلك بالاطلاع فى المرآة. وكذلك ينبغى للعاقل أن يمتحن أحواله بأن يكل نفسه إلى غيره من أهل الثقة والأمانة والأدب والديانة فى اختيار محاسنه ومساوئه وعيوب نفسه التى فيه، ويستنصحهم فى ذلك، فإن الإنسان قد يخفى عليه عيب نفسه، لاسيما لاستيلاء الهوى على عقله، فإذا أراح نفسه من ذلك، فقد نال غاية الشرف بانعطاف القلوب عليه وميلها إليه[(١)].

الوصف العاشر الكبر: اعلم أن الكبر خارج بالنفس عن حدّ الاعتدال، وحقيقته استعظام أو احتقار غيره، وسببه علو اليد والتميز بالمنصب، أو النسب، أو الفضل، ومتى جاوز حدّه وتعدى طوره، آل إلى البغى والعتو، فسلب الدين، وأفسد الإيمان، وخفض المنزلة، وحط الرتبة؛ لأنه يطمس من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، ويكره الصدور، ويوجب النفور[(٢)]. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر»[(٣)]. وقال رسول الله ﷺ لعمه العباس، رضى الله عنه: «أنهاك عن الشرك بالله، وعن الكبر، فإن الله تعالى يحتجب عنهما»[(٤)].

وحكى أن سليمان بن داود، عليهما السلام، جلس يومًا على بساطه بجنوده من الإنس، والجن، والطير، والوحش، ثم أمر الريح فرفعت البساط نحو السماء، حتى سمعوا

---

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٤٦ - ١٥٢).

(٢) حقيقة الكبر هى أن يرى نفسه فوق غيره من صفات الكمال، فيحصل من ذلك نفحة الكبر، ونتيجة الكبر منازعة الله تعالى فى خصوص صفاته، فإن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا به، فمن أين تليق العظمة بعبد ذليل لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٧، ١٤٨)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذى (١٩٩٨، ١٩٩٩)، وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣)، والإمام أحمد فى مسنده (٤١٢/١).

(٤) لم أجده، وأورده الشيخ الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص١٢٨). وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «إن ناسًا من أمتى يخرجون من قبورهم على صورة الذر، فيطفؤهم الخلائق بأقدامهم»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «المتكبرون». أخرجه الترمذى (٢٤٩٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٤٢)، والإمام أحمد فى مسنده (١٧٩/٢)، وابن المبارك فى الزهد (ص٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وإسناده حسن.

زجل الملائكة بالتسبيح، وسمعوا قائلاً يقول: لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر، لخسفنا به أكثر ما رفعناه. وقال بعض العلماء: إن للدولة أمراضًا يخاف عليها أن تموت بها، أخطرها أربعة أشياء: أحدها: ما يعرض للملك من الغضب، فإن دولته فى هذه الحالة تضطرب لخروجه عن حدود السياسة، والثانى: البغى، والثالث: ما يعرض له من الحرص، فإنه إذا أحرص ظلم وعسف الرعية، الرابع: هيجان الرعية، فإذا عرض له شىء من ذلك، فليبادر بالحسم.

وحكى المدائنى، قال: رأيت رجلاً بعرفات وهو على بغلة فى مركب من الذهب، والغلمان والخدام بين يديه والناس حوله، وهو لا يعبأ بأحد منهم، فنظرت إليه متعجبًا، وقلت له: يا هذا، ليس هذا موضع التكبر، إنما هو موضع التواضع والخشوع، فانزل عن بغلتك، واصرف الخدام من بيد يديك فى هذا الوقت، وأقبل على الله تعالى بخضوع وخشوع، فإنه يقبل عليك برحمته ورضوانه، قال: فلم يلتفت إلىَّ، وتركته وانصرفت، فلما كان العام المستقبل عبرت بالجسر ببغداد، فوجدت ذلك الرجل أعمى يتصدق من الناس، فقلت له: أنت كنت فى العام الماضى على بغلة بعرفات؟ قال: نعم أنا ذلك الرجل، قلت: فما بالك؟ قال: لما تكبرت فى موضع يتواضع الناس فيه، وضعنى فى موضع تكبر عن مثله الناس. وقاله بعض أهل الأدب:

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته ... مهلاً فإنك بعد الكبر مسلوب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا ... اقصر فإنك مأكول ومشروب

واعلم أن من قطع أسباب الكبر عنه، وازداد لله تواضعًا وخشوعًا وتعظيمًا لله سبحانه وتعالى، فقد سلك مسالك الشرف، ودرج فى مدارج النعم، وأزاح عنه المقت، واستعطف إليه القلوب(١).

الوصف الحادى عشر الحسد: اعلم أن الحسد داء عظيم من أدواء النفس، لا يشفى سقيمه، ولا يرقى سليمه، مع ما فيه من إفساد الدين، وإضرار البدن؛ لأن الحاسد يدوم همه، ويكثر غمه، ويذوب جسمه، ويذهل عقله عن الصواب وحسن الرأى، ويشتغل قلبه عن صحيح الفكر، وهو أقبح من البخل؛ لأن الحاسد يحب أن لا ينيل أحدًا شيئًا ما

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٢٧ - ١٣١)، الزاهر لابن فرحون (ص١٣٧ - ١٤٦).

لا يملكه، فكان أعظم قبحًا وأشد ذمًا، وليس شيء أعظم ضررًا من الحاسد، قال رسول الله ﷺ: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[١].

قال بعض الحكماء: يكفيك من الحسود أنه يغتم وقت سرورك، وإذا رزق الله المحسود نعمة، كانت على الحاسد نقمة. وكان يقال: الحسد نار فى الجسد. وكتب بعض الحكماء إلى صديق له: قد حسدك من لا ينام دون الانتقام، وطلبك من لا يقصر دون الظفر بك، حذرك بعد الثقة بالله تعالى على حسب ذلك. وقيل: كان مكتوبًا على فص خاتم بعض الملوك: الحسود لا يسود أبدًا، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا. وقال علىّ بن أبى طالب، كرم الله وجهه: لن يصل الحسد إلى المحسود حتى يصيب الحاسد نفسه بغم دائم، وعقل هائم، وهمّ لازم، وما رأيت ظالمًا يشتبه بالمظلوم إلا الحاسد. ولبعض أهل الأدب شعر:

كم من حسود أطال الله حسرته ... فاغتاظ همًا على الأيام من حسده
وحاسد الناس طوال الدهر فى تعب ... يزيده الحسد المذموم فى كمده

ولبعضهم فى المعنى شعر:

إن الحسود الظلوم فى كمد ... يخاله من يراه مظلوما
ذا تعس دائم على تعس ... يظهر منه ما كان مكتوما

وقال آخر:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها ... إذا لم تجد ما تأكله

اعلم أن أسباب الحسد ثلاثة أشياء، أحدها: بغض المحسود قبل ظهور النعمة عليه، فإذا ظهرت عليه النعمة، أو اشتهرت عنه فضيلة، أثارت البغضة القديمة حسدًا على ذلك. الثانى: أن يظهر على المحسود نعمة شاملة، أو فضيلة كاملة، يعجز عن تحصيلها

---

(١) إسناده ضعيف جدًّا: أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٦/٣٣٠) ح (٣٦٥٦)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٣٦) ح (١٠٤٩)، وفيه عيسى الحناط، متروك. انظر: التقريب (ت٥٣١٧). وأخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٣٦) ح (١٠٤٨) من طريق آخر، فيه عمر بن محمد ابن حفصة الخطيب. قال الحافظ الذهبى بعد أن ذكره فى مسند الشهاب: فهذا بهذا الإسناد باطل. انظر: ميزان الاعتدال (٥/٢٦٨) (ت٦٢١٧).

الحاسد، وتقصر همته عن إدراكها، ويكره تقدمه عليه بذلك، واختصاصه به دونه فيصير حسدًا. الثالث: أن يكون بالحاسد شح بالفضائل المكتسبة، وبخل بالنعم الموهبة، وليس يقدر على منعها منه ودفعها عنه، إذ هى فى يديه ولا مفوضة إليه، فيحسده على منحة الله تعالى من عطائه العميم، وفضله الجسيم، وهذا السبب داء ليس له دواء، فإن كان ذا قوة واقتدار، جره حسده على الانتقام من المحسود، وإن كان ذا عجز وضعف، حدث عنه هم دائم، وسقم زائد، فينبغى أن يحجب عنه أسباب الحسد، ويأنف من تعاطيه، ويستنكف من هجنة مساويه؛ ليدفع ضرره، ويتوقى شره، ولا يغالب قضاء الله تعالى فيرجع مغلوبًا، ولا يعارضه فى أمره فيصير مسلوبًا.

وسنذكر من تأثير الحسد وضرر عواقبه حكاية نختم بها هذا الفصل: ذكر أهل التاريخ أن بهرام بن يزدجر ملك الفرس كان صديقًا لخاقان ملك الترك، وكان بينهما مهاداة وتلطف، وأن بهرام اشتهر أمره بالقوة، والشجاعة، والكرم، وحسن السيرة، والعدل فى الرعية، فحسده خاقان على ذلك حسدًا شديدًا، وكان له وزيران، فذكر ذلك لأفضلهما، وسأله التدبير فى هلاك بهرام، فقال له الوزير: إن كتم الملك ذلك، سعيت له فيه، فقال: سأكتمه، فلما لبث مدة، سأل الوزير عما صنع فيه فاستصبره، فلما تكرر ذلك منه، قال الوزير: أيها الملك، لا حيلة لى فيما كلفتنيه، وإنما أستصبرك رجاء أن يزول ذلك من قلبك، فإنى رأيت الحاصل لك عليه، إنما هو فرط الحسد، وتدبير الحاسد عليه بالمضرة، وأخاف أن ينصب الملك مكيدة فيقع فيها.

قال: فغضب خاقان عليه، ثم أطلع وزيره الآخر على ذلك، وكان فيه شر وخبث وحسد وحيلة، فتكفل لخاقان بنيل مراده، ثم ندب له فاتكًا من فتاك الترك، لم يكن فى الترك أشد حيلة منه، ولا أجرأ منه فى ذلك، وضمن له إن قتل بهرام ونجا، أعطاه رئاسة الجند، وجعل ذلك خالدًا فى ولده، وإن هلك دون مرامه، شرف ولده تشريفًا يخلد ذكره فيه أبدًا، فاستصحب الفاتك أخاه معه، وتوجها إلى دار ملك بهرام، فلما وردا قصر بهرام، قال الفاتك لأخيه: بعنى لبعض خدمة قصر بهرام، فلم يزل يتلطف حتى باعه من حافظ القصر الموكل بحراسته، فجعل ذلك الفاتك يتحبب إلى مولاه بحسن الطاعة، ونصح الخدمة، حتى وصل عنده، واختص به دون غيره، وأن سيده تخلف يومًا عن حراسة القصر لمرض ناله، فاستناب الفاتك، فعمد ذلك الفاتك إلى خزائن سلاح بهرام، وكانت بجوار قصره، فألقى فيها نارًا، وشاغل أصحابه على المبادرة إلى إطفائها

حتى اشتد عملها، فارتفعت الضجة، فخرج بهرام من قصره على فرس ولا سلاح معه، فانتهز الفاتك فيه الفرصة، ودنا من بهرام وفى يده خنجر وقد أخفاه فى كمه، فنظر إليه بهرام فى ضوء النار، فرأى دلائل الريبة ظاهرة عليه، فتفرس فيه الشر، فجمع رجليه ووثب من ظهر فرسه، فإذا هو على الفاتك، وقبض على يديه، فوجد الخنجر، فأخذه منه بيمينه، ولفه فى شماله، وانطلق به يقوده حتى أدخله القصر، فخلا منه وسأله عن أمره، فصدقه الحديث.

فقال له بهرام: أما أنت، فلك ذمتنا على حفظ نفسك والإحسان إليك إذا كنت إنما أتيت الذى أتيت طاعة لخاقان، ومناصحة له، وبذلت نفسك فى مرضاته، ومثلك من يصطنع، ونحن نحفظ عليك نفسك التى ضيعها صاحبك، غير أننا نريد أن نحبسك مدة ثم نطلقك ونحسن إليك لغرض نريد أن نفعله، فدلنا على أخيك؟ فدله عليه، فأرسل إليه من قبض عليه وحبسهما فى قصره مكرمين، وأخذ عليهما أن يكتما أمرهما، وكان قد رفع إلى بهرام أن رجلاً من رعيته زارعًا فى بعض الرساتيق له ابنة لم يسمع بامرأة خلقت على وجه الأرض مثل صورتها، طولها ستة أذرع، وشعرها ينسحب على مواطئ قدميها، وجلدها فى لونه وصفائه كأنه قشور الدرّ، وهى متناسبة الخلق، بديعة التركيب، دقيقة التخطيط، لا يستطيع من رأى إلى عضو من أعضائها أن ينقل بصره عنه إلا بعد مجاهدة النفس، وإذا قابلت عين ذى لب اضطرب قلبه، فلا يسكن حتى يضمها إلى صدره، ويرشف ريقها، وكان لها مع ذلك الحسن الباهر أدب، وعقل، وحزم، فشرهت نفس بهرام إليها، ثم تنزه أن تكون تحته ابنة زارع، فقمع نفسه عن هواها أنفة ونخوة، ثم نهى أن يذكرها له أحد، وأمر العامل على البلد التى هى فيها أن يتفقد أمرها، ومنع أباها من إنكاحها.

حتى إذا حدث عليه خاقان ما ذكرناه، أحضر رجلاً من أصحابه ذا دهاء ومكر وحيلة، فندبه لمكيدة خاقان، وأمره بما سنذكره فى أثناء الحكاية، وأعطاه من الذهب والفضة ونفائس الجواهر ودخائر الملوك ما يظن أنه يحتاج إليه فى عمل المكيدة، وأمره أن يسير متنكرًا فى زى تاجر إلى والد تلك الجارية التى ذكرناها، فيشتريها منه بما يريد؛ ليستعين بها على ما ندبه إليه، وأرسل إلى العامل على بلد أبيها يأمره أن يضيق على أبيها ويطالبه بما يعجز عنه من المال، ففعل ذلك، فجاء التاجر واشترى ابنته بوزنها ذهبًا، وهذا شيء كان يفعله أهل الخراج من الفرس إذا ضيق السلطان عليهم، باعوا أولادهم.

قال: ثم إن التاجر قصد بها بلاد الترك، حتى حل بمدينة خاقان، فقصد الوزير الساعى لبهرام فى المكيدة، وأهدى له هدايا نفيسة، وتقرب عنده بالتحف، إلى أن آنس به الوزير، وخف على قلبه، ولبث عنده عامًا، ثم قال له: عندى أيها الوزير تحفة، ولك عندى حب شديد، ولى عام أنازع نفسى بإتحافك بهذه التحفة التى لم يظفر أحد بمثلها، وكانت نفسى لم تسمح بها، فقد سمحت بإيثارك، فقال: وما هذه التحفة؟ قال: جارية طولها ستة أذرع، وشعرها ينسحب على مواطئ قدميها، كأنما كسى جلدها قشور الدرر.

قال: فلما سمع الوزير الصفة، استفزه الهوى إليها، وجعل يتقصى إحضارها، فلما أحضرها ووقع بصره عليها، لم يملك نفسه أن وثب عليها، فعانقها وضمها وقبلها ورشفها، ثم التفت إلى سيدها، وقال له: سل ما شئت واحكم، فقال: حكمى القرب منك، والحضور عندك، قال: هذا لك، وخذ من المال ما شئت، قال: لا حاجة لى فيه، ثم خرج مبادرًا إلى باب قصر الملك خاقان، فقال لبعض ثقاته: إن عندنا نصيحة نخاف فوتها، فأدخلوه على خاقان فى الحال، فسأله عن حاجته ونصيحته، فقال: إنى قصدت الملك بتحفة لا تصلح إلا له، فسألت الوزير فلانًا أن يوصلها إلى الملك، فاستأثر بها واعتدى، وبذل مالاً كثيرًا على كتمان ذلك، فلم أفعل ذلك، فقال: وما هى التحفة؟ قال: جارية طولها ستة أذرع، وصفتها كذا وكذا.

فأرسل خاقان من نفسه رجالاً من ذوى النسك فى دينهم، وأمرهم بالهجوم عليه، وحفظ الحال التى يرونها عليها، والإتيان به وبالجارية محجوبة عن الأبصار، ففعلوا ذلك، وقالوا: إنهم أبصروها بين يديه جالسة مجردة، فسألها خاقان عما نال منها، فقالت: عانقنى وقبلنى وجردنى ونظر إلى سائر بدنى، وهم أن يقتضى منى، فهجم هؤلاء القوم عليه، فأمر خاقان أن تقطع يداه، وتقلع عيناه، ويقطع لسانه وشفتاه، ففعلوا ذلك بالوزير.

ثم أن خاقان خلا بالجارية وسألها أبكر هى أم ثيب؟ فقالت: بل بكر، فلم يملك نفسه أن افترعها، فلما نزع منها أزالت عن رأسها قناعها، فمسحت به ذكر الملك، فأحس به من ساعته ينمل، ثم بعد ذلك ظهر فيه نفخ، ثم ابتدأ فيه الوجع الشديد، فعلم أنه سم، فتناول موسى وقطع به ذكره، وأمر بالجارية فصرفت عنه وحفظت، وطلبوا مولاها فلم يظفروا به، وأن خاقان عالج نفسه حتى برئ، ثم أحضر الجارية فسألها عن

نفسها وأهلها وبلدها، فأخبرته أنها لم تكن تعلم من أمر مولاها أكثر من أنه تاجر اشتراها من أبيها بوزنها ذهبًا، وسألها عن قناعها، فقالت: كسانيه سيدى، وعرفنى أنه يهدينى للملك، وشأن الملوك إذا وقع أحد منهم جارية ونزع منها أنها تمسح ذكره بما على رأسها كائنًا ما كان، فإن لم تفعل ذلك سقطت من عين الملك، وتعرضت لسخطه، فعلم خاقان أنها مخدوعة معذورة، فلم يتعرض لها بسوء.

فلما عاود صاحب بهرام إليه وأخبره بما تم له من المكيدة، أمر بهرام بإحضار الفاتك التركى وأخيه، وأحسن إليهما، وكتب معهما كتابًا إلى خاقان يقول: إن الحسد والبغى أوردك واوردًا وزيرك السوء موارد الندم، وقد كنا أنزلنا بمنزلة الأخ قبل أن نعرف خبث نيتك فينا، وحسدك لنا، فلما علمنا ذلك أردنا بك ما أردته بنا، فقضى الله لنا عليك بنجاح السعى، لعلمه بصلاح نيتنا، وخبث نيتك، والآن فاتق الله على نفسك، فلسنا نعرض لك بسوء إذا لزمت حسن النظر لنفسك بمسالمتنا.

قال: فلما انتهى الكتاب إلى خاقان، عرف ممن أصابه ما أصابه، ثم أنه داخلته الحمية والغيرة، فتجهز لقتال بهرام فى أمم من الترك لا تحصى، وسار إلى أرض فارس، فانتخب له بهرام أجنادًا من شجعان الفرس، ولقيه فهزمه بهرام، وقتل رجاله، ونهب أمواله، واستولى على بلاده، وكان إثارة هذه الفتنة الحسد والبغى(١).

الوصف الثانى عشر العجلة: اعلم أن العجلة رديئة العاقبة، مذمومة الأمر، ينتجها طيش وتهور، أولها ملامة، وآخرها ندامة، لا يفارقها الزلل، ولا يتعداها الفشل. وقد قال رسول الله ﷺ: «العجلة من الشيطان»(٢). وكان يقال: لا يواجه العجول محمودًا، ولا الغضوب سرورًا، ولا الشره غنى.

وقيل: إنه اجتمع أربعة ملوك من الروم عند حكيم من حكمائهم، فقالوا: أوصنا أيها الحكيم وصية ننتفع بها بما صار إلينا من أمر الملك، فقال: من استطاع منكم أن يمنع نفسه من أربعة أشياء، فهو حقيق أن لا ينزل به مكروه، وهى: العجلة، واللجاجة، والغضب، والتوانى، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة الغضب البغضة، وثمرة التوانى الذلة.

---

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٣٣ - ١٣٧).
(٢) عزاه الحافظ العجلونى للترمذى، عن سهل بن سعد مرفوعًا، وقال: حديث حسن. انظر: كشف الخفاء (٧٢/٢).

وكان يقال: التثبت فى النوائب معقل أهل التجارب، والعجلة فى الأمور داعية إلى كل محذور. وأوصى ملك من ملوك اليمن من يخلفه من بعده، فقال: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنك إن تتقه يزيدك ويرضى عنك، ومتى رضىَ الرب عن عبده أرضاه، وآمرك أن لا تعجل فيما لا تخاف فيه الفوت، فإن العجلة ندامة، وإذا شككت فى أمر فشاور، وإذا اتهمت فاستبدل، وإذا قلت فاصدق، وإذا وعدت فانجز، وإذا أوعدت فى حق فانفذ، واعلم أنك إذا ضبطت حاشيتك ضبطت قاصيتك، والسلام.

واعلم أن العجلة مذمومة، إلا فى أفعال البر، وصنائع المعروف، فإنها حسنة محمودة. وقال بعض الحكماء: على الملك أن يعمل بخصال ثلاث: تأخير العقوبة فى سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسن، والأناة فيما يحدث، فإن له فى تأخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة فى الطاعة من الرعية، وفى الأناة إيضاح الرأى، وانفساح الصواب.

وذكر بعض الملوك فى وصية له لولى عهده: إذا هممت بخير فعجله، وإذا هممت بخلافه فتأن فيه، وارحم ترحم. وكان يقال: العجلة مذمومة قبيحة، إلا فى ثلاثة أشياء: فى اصطناع المعروف إذا أمكن، وفى تزويج البكر إذا خطبت، وفى دفن الميت.

الوصف الثالث عشر المزاح: اعلم أن المزاح شاغل عن الأمور المهمة، مذهل عن النوائب الملمة، يذهب الهيبة والوقار، وليس لمن وسم به مقدار، يزيح عن الحقوق، ويفضى إلى العقوق، ويشغل خواطر الأصحاب، ويجانب محاسن الآداب، ويذهب عنها ويجرئ السفهاء، أوله حلاوة، وآخره عداوة.

قال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: اتقوا المزاح، فإنه حمقة تورث الضغينة[1]. وقال أكثم بن صيفى: المزاح يذهب بالبهاء والمهابة فاحذروه. وأوصى مسلم بن قتيبة أولاده، فقال: لا تمازحوا فيستخف بكم نظراؤكم، ويجترئ عليكم أكفاؤكم، وهو مسلبة للهيبة، مقطعة للصحبة، أوله فرح، وآخره ترح. وقيل: إذا مازح السلطان هان عند رعيته، وإذا سفه ذهبت حرمته. وقيل فى منثور الحكم: من قل عقله كثر هزله. وقيل: المزاح معدن الداء، عسير الدواء. وقيل: خير المزاح لا ينال، وشره لا يقال.

وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر من شىء عرف به، ومن مزح

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٨٣).

استخف به، ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته، ومن عرض نفسه إلى التهمة فلا يلومن من أساء به الظن. وقال بعضهم لابنه: يا بنى، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنىء فيجترىء عليك. وكان يقال: لكل شىء بذر، وبذر العداوة المزاح، ولهذا شعر:

اترك مزاح الرجال إن مزحوا ... لم أر قومًا تمازحوا سلموا
يفنى مزاح الفتى مروءته ... ورب قول يسيل منه دم

وقال آخر شعر:

ولقد حبوتك يا بنى نصيحتى ... فاسمع مقال أب عليك شفيق
أما المزاح مع المراء فدعهما ... خلقان لا أرضاهما لصديق
إنى بلوت فلم أكن أحمدهما ... لمجاور منى ولا لرفيق

واعلم أن النفوس متى سلك بها الجد وألزمت به، سئمت، وضجرت، واستقلت حمل الحمق، وربما إلى ضيق الصدر، وسوء الخلق، فينبغى أن يريحها بقليل المزاح، ويسير الدعابة، وليكن كما قال أبو الفتح:

أفد طبعك المكدور بالجد راحة ... ترحه وعلله بشىء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقال ﷺ: «إنى لأمزح ولا أقول إلا حقًا»[١]. وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بنى، اقتصد فى مزاحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرىء عليك السفهاء، والاقتصار عنه بالكلية يبغضك إلى أصحابك ومؤانسيك[٢]، فامزح معهم، وليكن بمقدار ما يحصل لهم به الأنس منك من غير إفراط، وليحذر مع هذا الشرط أن يمازح الآدمى عدوه، فيصير ذلك طريقًا إلى إعلان المساوئ، فقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك[٣].

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٨٣/١) ح (٩٩٥)، وفى الصغير (٧١٢) وفيه مبارك بن فضالة، صدوق، يدلس ويسوى. انظر: التقريب (ت٦٤٦٤)، وحسنه الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٢/٨)، والحديث إسناده ضعيف لما تقدم.

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى حيث ذكره فيه (ص١٨٤).

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٨٢ - ١٨٧)، الزاهر لابن فرحون (ص٣٢٨، ٣٢٩).

الوصف الرابع عشر الضحك: اعلم أن الضحك يضاهى المزح فى المذمة والقبح، ولا تقتضيه حال الملوك وأرباب المناصب؛ لما فيه من زوال الهيبة، وذهاب الوقار، وقلة الأدب، وقد قال رسول الله ﷺ لأبى ذر الغفارى، رضى الله عنه: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بهاء الوجه»(١). وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته(٢)، ومن أكثر من شىء عرف به(٣)، ولكن لابد أن يرى الإنسان أو يسمع ما يغلب عليه الضحك منه، أو تمس الحاجة إليه لإيناس الجليس، فينبغى إذا طرأ شىء من ذلك أن تجعله تبسمًا من غير قهقهة واسترسال، وليراع فيه الشرط الذى قدمناه فى المزح(٤).

الوصف الخامس عشر الغدر: اعلم أن الغدر بعد عقد العهد حرام، وعاقبته هلاك ودمار، إذ لا نقض حتى ينقضى أمده وتنقضى مدده، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٧].

وروى سليمان بن عامر، قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، فسار معاوية فى أرضهم، كأنه يريد أن يُغير عليهم، فقال له عمر بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحل عقده، ولا يشدها، حتى يمضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فانصرف معاوية ذلك العام.

وقال بعض الحكماء: الغدر يسرع إلى الهلك، ويفضى إلى زوال الملك. وكان يقال لكل عاثر راحم، إلا الغادر، فإن القلوب مجمعة على الشماتة بصرعه. وقال حكيم لبعض ملوك زمانه: أوصيك بخمس خصال ترضى بهن ربك، وتصلح بهن رعيتك: لا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعرًا، ولا تعدن وعدًا ليس فى يديك وفاؤه، واعلم أن الأمور بغتة، فكن على حذر، واعلم أن الأمور جزاء ومكافأة، فاتق العواقب،

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٧٦/٢ - ٧٩) ح (٣٦١)، والطبرانى فى الكبير (١٥٧/٢) ح (١٦٥١)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى، وثقه ابن حبان، وضعفه أبو حاتم، وأبو زرعة. انظر: مجمع الزوائد (٢٩٦/١٠).

(٢) ذكره الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص١٨٧).

(٣) وقال الخليفة على، عليه السلام: إذا ضحك العالم ضحكة مَجّ من العلم مَجّةً.

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٨٢ - ١٨٧)، الزاهر لابن فرحون (ص٣٢٥ - ٣٢٨).

وإياك والغدر، فإنه أقرب الأشياء صرعة.

وأوصى أبو مسلم الخراسانى قومًا بعثهم إلى منازل قوم عدو لهم: أشعروا قلوبكم الجرأة، فإنها سبب الظفر، وأكثروا من ذكر الضغائن، فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة، فإنها حصن المحارب، واحذروا من الغدر، فإن الغادر مصروع. ويحكى أن موبذان قال لفيروز ملك العجم لما عزم على نقض العهد الذى كان بينه وبين الخنشوار ملك الهياطلة، وخرج إلى بلده: أيها الملك، إن الرب تعالى يمهل الملوك على الجور ما لم يشرعوا فى هدم أركان الدين، فإذا شرعوا فى ذلك لم يمهلهم، فإن عقدوا ميثاقًا من أركان الدين فلا تنقضه، قال: فلم يلتفت إليه فيروز، وخرج طالب الخنشوار، فهزم جيشه، وقتله واستولى على بلاده.

وقد أوضحنا فى هذا الباب من الأوصاف الذميمة، والأخلاق اللئيمة ما احتمله كتابنا هذا، وسنختمه بذكر عوارض رديئة ربما عرضت للملوك أو بعضها، فأضرت بهم وأخرجتهم عن حدود الاعتدال، وهى ثلاثة أعراض، الأول والثانى الهم والغم، فإن هذين العرضين إذا طرآ واشتد إفراطهما، فإنهما يحدثان من الألم والأذى على النفس والجسم ما لا يمكن تلافيه، ويؤديان إلى التقصير فى المطالب، والقصور فى التدبير، مع ما يظهر فى الجسم من النحول، وفى العقل من الذهول، وهذان العرضان لا مندوحة لأحد عنهما، ولابد من طروءهما فى مقابلة الحوادث الملمة، والنوائب المهمة، فالهم هو خوف ما يتوقع حدوثه وطروءه فى الزمن المستقبل من الأمور المهمة، والغم هو كمد النفس وحزنها على ما ذهب إليه الزمان الماضى، فينبغى للملك أن يريح نفسه وجسده عند طروء أحدهما، وينال شيئًا من اللذة والسرور بالأشياء المباحة فى الشرع، بقدر ما يبلغ به مصلحته، ويحفظ به صحته.

وينبغى أن يكون مقدار إصابته من ذلك ما يحصل به الاعتدال من غير إفراط فيه، فإن الإكثار من اللهو يحصل به من الضرر فوق ما يحصل به من الغم، فإنه يلهيه عن مصالح المملكة، والاعتدال فى ذلك أسلم، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، رحمه الله، إذا طرأ عليه أحد هذين العرضين، نزل إلى الميدان، وجعل يلعب حتى بالكرة والصولجان نهاره، فإذا جن عليه الليل بسط رقعة الشطرنج، وجعل يلعب حتى يغلب عليه النوم.

العرض الثالث السكر من الشراب، اعلم أن السكر حرام فى جميع الأديان، وإنما

اختلفوا فى عين المسكر، وقد أجمع أهل العقل على قبح السكر، مع تحريم الشرائع له، وهو من الأعراض الرديئة المفضية بصاحبها إلى البلايا والأسقام، وقد ذكر أهل الطب أن الإفراط من السكر ربما حدث منه فى وقت السكت والاختناق، وربما حدث منه انفجار الشريانات التى فى الدماغ، ويحدث منه فى غير وقته الحميات الحارة، والأورام الدموية والصفراوية، وتحدث منه الرعشة والفالج، هذا كله مع ما يجلب على صاحبه من فقد العقل، وهتك الستر، وإفشاء السر، والاشتغال عن درك المطالب، ولا يكاد صاحبه يسمو له حال، ولا يستقيم له أمر فى تدبير، ولا يزال منحط الرتبة عند نظرائه، مسلوب الوقار فى أعين الناس، وأكثر ما ينصب الغوائل والمكائد للملوك فى حال سكرهم، هذا كله مع ما يؤول السكر بصاحبه فى الآخرة إلى العذاب المهين، والنكال الدائم.

* * *

الباب السابع

فى كيفية رتبة الملك وأوليائه فى حال جلوسه وركوبه

اعلم أن ملوك الأمم على اختلاف أجناسهم، كانت لهم سنن وآداب يميزون بها، وأقاموا أبهتهم بالمواظبة عليها، يضيق كتابنا هذا عنها وعن شرحها، ولا فائدة فى ذكرها؛ لأن الشرع ورد بالنهى عن التشبه بها، بل نقتصر فى ذلك على مثال ما رتبه فى ذلك الخلفاء من بنى العباس، إذ هم قدوة ملوك الناس، وسنذكر من ذلك قدر الحاجة على سبيل الاختصار، فنقول: ينبغى للملك أن يجعل جلوس طبقات أصحابه وأعوانه وأوليائه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: يجلس فيها الجند والغلمان الذين ليس لهم مزية على غيرهم.

المرتبة الثانية: يجلس فيها القواد المتوسطون الذين قد ولوا الأعمال من قبل الأمراء، ومن يجرى مجراهم من الطواشية وغيرهم.

المرتبة الثالثة: يجلس فيها الأمراء والأكابر الذين يتولون الأعمال، ويخطب لهم على المنابر، وكبار الحجاب، والعلماء، والقضاة، وهذه المرتبة تسمى دهليز الخاصة، وهو القريب من الستر.

فإذا جلس الناس لا يختلط قوم بغيرهم، ولا يعلو أحد منهم فى الجلسة على من هو

فوقه، ويطرقهم الحجاب طول جلوسهم، فإذا جلس أحد فى غير مرتبته أقامه إليها، ويجلس صاحب الحجاب ملاصقًا للوزير، والباب الذى يوصل منه إلى الملك؛ لأنه أول من يصل إليه، ويكون الستر مسبلاً على الباب، ويمسكه البوابون الفحول، ولا يطلقونه لأحد لأجل الاطلاع منه إلى صحن الدار التى يجلس فيها الملك، فإذا خرج الملك مع خدمه، وجلس على سريره المفروش، وقف على رأسه الخادم الخاص، ويكون ممن له فطانة، وصورة حسنة مقبولة، ثم يخرج الخادم الحربى صاحب الرسالة، فيستدعى صاحب الحجاب، فيدخل وحده، ولا يشال الستر لكن بعضه حتى يقف فى صحن الدار بين يدى الملك، ثم يستدعى الوزير، فيتقدم الحاجب، ثم يمشى إلى أن يقرب من السرير، فيتقدم وحده ويرجع عنه الحاجب إفرادًا له عما يعامل به سائر الناس من التقدم معه، فيخدم الملك، ثم يقف عن يمين السرير على نحو خمسة أذرع منه، ثم يدخل أمير الجيش بعده، فيمشى معه الحاجب كما فعل بالوزير، فيخدم الملك، ثم يقف على يسرة السرير.

ثم يدعى بالحجاب فيدخلون، وبالخدم الرؤساء فيدخلون، ثم يدعى بالأمراء القواد، فيوصلهم الحجاب ويقفون على مراتبهم يمنة ويسرة على حسب محالهم ومواقعهم من المراتب، ولا يتقدم أحد على غيره، ثم يدعى بالعلماء والفقهاء والقضاة، فيجلسون دون الوزير على يمنة السرير، ثم يستدعى رؤساء الأطباء، فيقفون بارزين، فإذا احتاج لشىء من علمهم، كانوا حاضرين يعلمون به الملك بعد خروج الناس، ثم يستدعى بالغلمان والجند، فيقيمون بارزين صفًا مفردًا خلف الناس، ثم يخرج الناس عن طبقاتهم بعد وقوفهم ساعة، وبعد أن يلحظهم الملك، ويشاهد حضورهم، ويعرف من يتخلف من وجوههم، وليحذر كل من يقف بين يدى الملك أن يتشاور أو يتحدث مع أحد.

ثم يتخلف الوزير ساعة طويلة، وقد ينحى صاحب المرتبة الكبيرة من موضعه إلى أن يشاور الوزير الملك فيما يحتاج الأمر إلى مشاورته، ومن أدب الوزير أن يأخذ المذبة الصغيرة ويروح على الملك بها، ويكون صاحب الحجاب واقفًا بالبعد، بحيث إذا دعى أجاب، ثم يخرج الوزير بعد ذلك ومعه الحاجب، فيجلسان فى الدهليز، وينظران إلى أعمال الملك المهمة وحوائج العامة، ويرجع الناس إلى مراتبهم وأعمالهم، وإذا أراد الملك أن يركب فى موكبه، فتمشى الخدم قدامه وهم متحفظون على أسلحتهم، إلى أن يوصلوه موضع الركوب فيركبوه، وقد تقدمهم قطعة من الحجاب قدام الموكب، يطرّقون ويمنعون أحدًا من سلوك الطرقات، وتكون الخيل المسومة بأحسن العدد من جنب وقدام الملك، ويكون الوزير وراء الملك، بحيث إذا دعى أجاب، ولا يخرج الملك

إلى الالتفاف له بعنقه، فإذا استتم كلام الملك رجع إلى وراء الملك.

ويكون خلف الوزير رؤساء الخدم وسائر طبقات العسكر، ثم يتبع ذلك بغال الشراب وبغال الماء، وتكون بارزة بحيث ترى، ولا يزاحمها الموكب، ويكون معه بغال الكسوة، وفيها بغال معدة، ويكون معها بغل عليه صندوقان يعد فيهما ما خف من الأطعمة، ويكون خلف الخدم خادم الجوائز والصدقات، ومعه حقيبة فيها صرار من خمسة دراهم إلى مائة إلى ألف، فإذا أمر الملك بمبلغ عرفه وأعطاه إلى صاحبه، ويكون فى الموكب الفقهاء، والعلماء، والفضلاء، والمؤذنون؛ ليحصل بهم الرحمة، وإذا وصل الملك إلى قصره تراجع الناس أجمع.

ولا يكثر الملك من الركوب، فإن هيبته كالأسد فى قلوب أهل البلد من الذين حوله، ولا يتحجب، فإن ذلك مضر بالملك، بل يكون التحجب والظهور بقدر الحاجة بهم، فإن السباع الكاسرة إذا لم تشاهد الراعى بلغت مرادها من الغنم.

* * *

الباب الثامن

المشورة والحث عليها

اعلم أن المشورة عين الهداية، وسبيل الرشاد إلى الأمر، وإيضاح المبهم من الرأى، ومفتاح المغلق من الصواب، وقد حث الشرع عليها، وندب الخلق إليها، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال الحسن البصرى، رضى الله عنه: أمره بالمشاورة ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل به(١)، وقال الضحاك: أمره بالمشاورة لما علم ما فيها من الفضل، وما يعود منها من النفع(٢)، ولأن إرسال الخواطر الثاقبة، وأصالة الأفكار الصافية لا يكاد يعزب عنها ممكن، ولا يخفى عليها جائز، والمستبد برأيه بعيد من الصواب، قريب من الزلل، وقد قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس(٣)، وما استغنى مستبد

---

(١) عزاه الحافظ السيوطى لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى سننه. انظر: الدر المنثور للسيوطى (١٥٩/٢).

(٢) عزاه الحافظ السيوطى لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن أبى حاتم. انظر: الدر المنثور للسيوطى (١٥٩/٢).

(٣) إلى هنا أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣٦٢/٣) ح (٤٨٤٧)، وعزاه الحافظ الهيثمى للطبرانى فى الصغير، وقال: فيه جماعة لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٧/٨).

برأيه، وما هلك أحد عن مشورة، وإذا أراد الله بعبد هلكة، كان أول ما يهلكه رأيه»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «نقحوا عقولكم بالمذاكرة، واستعينوا على أموركم بالمشاورة»[2].

وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه[3]، وقال بعض البلغاء: الخطأ مع الاستشهاد أحمد من الصواب بالاستبداد. وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك، فشاوره ليكمل لك الرأى. وكان يقال: إذا أشكلت عليك الأمور، فارجع إلى رأى العقلاء، ولا تأنف من الاسترشاد يشكرك العباد، فإن تسأل وتسلم خير لك من أن تصيب وتندم. وقال بعض الحكماء: مسترشد ضعيف الحيل خير من عاقل مستكمل رأيه.

ويقال: التردد خير من العجلة، وإذا اقتصر الملك برأيه، عميت عليه المراشد. وقال حكيم من الفرس: النظر فى الأمور من العزم، والعزم من الرأى، والرأى سلامة من التفريط، وسلامة التفريط داعية إلى الظفر، والتدبير والفكر يبحثان عن الفطنة، ويكشفان عن الحزم، ومشاورة الحكماء ثبات فى اليقين، وقوة فى البصيرة، ففكر قبل أن تعزم، واعزم قبل أن تصرم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حصنت النعم بمثل المداراة، ولا اكتسبت البغضة بمثل الكبر.

وقال عبد الملك بن مروان: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلىّ من أن أصيب وقد اكتفيت برأى، وأمضيته بغير مشورة؛ لأن المقتصر برأيه يزرى به أمران: تصديقه رأيا الواجب عليه تكذيبه، وتركه المشورة التى يزداد به بصيرة[4]، ولهذا شعر:

إذا الأمر أشكل إنفاذه ... ولم تر منه سبيلا فسيحا

فشاور عليه ولا تخفه ... أخاك اللبيب الأديب الفصيحا

فربما أفرج الناصحون ... وأبدوا من الرأى رأيًا صحيحا

وقال محمود الوراق:

---

(١) أورده الشيخ الماوردى هكذا فى أدب الدنيا والدين (ص١٧٥).

(٢) لم أجده، والتقصير منّا.

(٣) ذكره الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص١٧٥).

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٧٣ - ١٧٩).

إن اللبيب إذا تفرق أمره ... فتق الأمور مناظرا ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال آخر:

شاور صديقك فى الخفى المشكل ... واقبل نصيحة صاحب متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه ... فى قول شاورهم به وتوكل

* * *

الباب التاسع

فى بيان أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة

اعلم أنه اختلف الناس فى أهل الشورى، هل الأولى أن يجمعهم الملك على الرأى، أو ينفرد بكل واحد منهم فى المشورة، فذهبت العرب والفرس وملوك الهند إلى أن الأولى اجتماعهم فى تدبير الرأى، وأصالة الفكر؛ ليذكر كل واحد ما قدحه فكره، ويبين نتيجة فكرته، حتى إذا كان هناك ضرر فى الأمر ذكروه، وإن توجه عليه نقض نقضوه، وأنه لا يبقى فى الرأى مع اجتماع القرائح خلل إلا ظهر واشتهر.

وذهب الروم وملوك القبط إلى أن الأولى انفراد كل واحد بالمشورة؛ ليجيل فكره، ويستجدى خاطره للوصول إلى صواب الرأى، فإن القرائح إذا انفردت استكررها الفكر، واستفرغها الجهد، وإذا اجتمعت كان أول ما بدا به الرائى متبوعًا، وينبغى أن يجتمع فى أهل الشورى سبع شروط عليها مدار المشورة، وبها يشتمل صواب الرأى:

أحدها: الفطنة والذكاء؛ لئلا تشتبه عليهم الأمور فتلتبس، فلا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يتم فى التباسها حزم.

والثانى: الأمانة؛ لئلا يخونوا فيما ائتمنوا عليه، أو يغشوا فيما استنصحوا فيه.

الثالث: الصدق، صدق اللهجة بخبرهم؛ ليثق الملك فيما ينهون إليه، ويعمل برأيهم فيما أشاروا به عليه.

الرابع: أن يسلموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس، فإن ذلك يمنعهم من الكشف عن صواب الرأى.

الخامس: أن يسلموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء، فإن العداوة

تستدعى التناصف، وتحجب عن صواب الرأى.

السادس: أن لا يكونوا من أهل الأهواء، فيخرجهم الهوى عن الحق إلى الباطل، فإن الهوى خادع الألباب، وصارف الرأى عن الصواب.

السابع: أن يكونوا من كبراء الدولة، ومشائخ الأعوان؛ لأن المشائخ قد حنكتهم التجارب، وعركتهم النوائب، وقد شاهدوا من اختلاف الدول ما أوضح لعقولهم صواب الرأى.

وقد كانت العرب تقول: المشائخ أشجار الوقار، ومنابع الأخبار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم وهم. وقد كان يقال: عليك بآراء المشائخ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع، فقد مرّت على عيونهم وجوه العبر، وتصدت لأسماعهم آثار الغبر. وحكى أن المأمون قال لأولاده: يا بنىّ، ارجعوا فيما اشتبه عليكم إلى رأى أهل الحزم من أعوانكم المجربين المشائخ المشفقين، فإنهم يرون لكم ما لا ترون، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون، فقد صحبوا لكم الدهور، ومارسوا لكم الأمور، وعرفوا حوادث الأزمنة وأعراضها، وإقبالها وإدبارها، فروضوا أنفسكم لهم، وتجرعوا مرارتهم، فقد قيل: من جرعك مرًا لتبرأ، شفق عليك ممن جرعك حلوًا لتسقم.

وينبغى أن لا يدخل الملك فى مشورة بخيلاً، ولا جبانًا، ولا حريصًا، ولا معجبًا، ولا كذابًا؛ لأن البخيل يقصر بعقلك، والجبان يخوفك ما لا تخاف، والحريص يعدك ما لا يرجى، فقد كان يقال: البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة، يجمعها سوء الظن. وقال عبد الملك بن مروان لبعض عماله: لا تستعن فى أمر دهمك كذابًا، ولا معجبًا، فإن الكذاب يقرب لك البعيد، ويبعد عنك القريب، وأما المعجب، فليس له رأى صحيح، ولا روية تسلم.

وينبغى للملك إذا أتى كل أحد بما عنده من الرأى، أن يتصفح أقوالهم، ويكشف عن أصولها وأسبابها، ويبحث عن نتائجها وعواقبها، مع مشاركتهم جميعًا فى الارتياء والاجتهاد، وليتوقف فى ذلك، وليحذر مبادرة العمل بالرأى قبل إمعان النظر فيه، فقد قيل: أضعف الرأى ما منح للبديهية ابتداء، وأفضله ما تكررت الفكرة بعده، وأحكمت الروية عقده. وكان يقال: كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة، فهو مولود لغير تمام.

قال عبد الله بن وهب: الرأى ابن ثلاث، فإن عيوبه تكشف لكم عن محضه. وقال ابن هبيرة وهو يؤدب ولده: لا تكن أول مشير، وإياك والرأى الفطير، ولهذا شعر لبعض أهل الفضل:

وإذا الخطوب عليك يومًا أشكلت فاعمد لرأى أخ حكيم مرشد
فإذا استشرت فكن لنفسك رائدا متوخيا حد الرشاد فتهتدى

قال: فإذا تكرر له الرأى الصحيح بعد الفكرة والروية شرع فى إمضائه والعمل به، وينتهز فيه الفرصة، وليحذر مخالفة النصحاء والاستهانة بنصائحهم، فقد قيل: من عصى ناصحًا فقد استدعى عدوًا. وكان يقال: يستدل على إدبار أمر الملك بخمسة أشياء، أحدها: أن يستكفى الأحداث الذين لا خبرة لهم بموارد الأمور ومصادرها. الثانى: أن يقصد أهل مودته بالأذى. الثالث: أن ينقص خراجه عن مؤنة ملكه. الرابع: أن يكون بتقريبه وإبعاده إنما هو للهوى لا للرأى. الخامس: استهانته بنصائح العقلاء، وآراء ذوى الحفلة. قال كسرى أنوشروان: حزم الرأى مشورة أهل العلم. وقال أهل الفضل:

إذا ما الأمور عليك التوت فشاور لبيبًا ولا تعصه
وإن كنت فى حاجة مرسلاً فارسل حكيمًا ولا توصه

وقال أبو الفتح البستى:

فللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
فلا تكن عجلا فى الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران

وسنختم هذا الباب بثلاث حكايات موضحة لما شرحناه:

الحكاية الاولى: قيل: إن كسرى أنوشروان وصفت له أرض من التخوم الهندية تقارب أقصى بلاده بحسن المنظر، وطيب الهواء، وكثرة العمائر، وحصانة المعاقل، ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم، وبلادة الفهوم، وشجاعة النفوس، وقوة الأبدان، والصبر على ملازمة الطاعة لملكهم، ولين القياد، فشرهت نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض، فسأل عن ملكها، فأخبروه أنه عظيم المنظر، وأنه شاب منقاد إلى شهوته، مقبل على لذاته، غير أن رعيته قد أشربت قلوبها وده، وانصرفت آمالها إلى ما عنده.

قال: فجمع كسرى وزراءه، وأعلمهم أن نفسه شائقة إلى تملك تلك الأرض، وعرفهم صفات مالكها، وهو أن لا ركن له غير إقبال رعيته إلى طاعته ومحبته، فاجتمع رأيهم على أن ينتدب لاستفساد رعية ذلك الملك رجالاً يحسنون نصب الدعوات، وقلب السبل.

قال: فأحضر رجالاً من دهاة العرب وفتاكهم، وأمدهم بالأموال، ونصب لهم مثالاً يعملون عليه، فنفذوا لما أمرهم، وتفرقوا فى تلك المملكة، وأعمل كل منهم قوته فيما انتدب له، وأحكموا أمرهم فى عامين، وبثوا الدعوة فى تلك المدينة وغيرها من قراها ورساتيقها ومعاقلها وثغورها، واستمالوا قلوب الرعية إلى كسرى، فأحضروا المرزبان الذى به تلك الأرض وأمره بالتجهيز إليها، فلما أخذ المرزبان فى إعداد الجند، وكان عسكره خمسين ألف رأس سوى أتباعها، فكتب إلى الملك عيونه يخبرونه بخروج المرزبان إليه، ثم ظهر النفاق ببلاده، وهمس الناس فيه، فانتبه من غفلته، وبحث على الأمر، فوقف على حقيقته، وكان أمر مملكته يدور على خمس رجال، أربعة منهم هم وزراؤه وجلساؤه، والخامس رئيس الزمارمة الذين يأخذون عنه الدين، وكان حكيمًا عالمًا.

قال: فجمعهم الملك، وأطلعهم على ما انتهى إليه من فساد الرعية، وتجهز جيوش أنوشروان إلى جهتهم، وأمرهم فى نظر ذلك، وإمعان الفكر فيه، فجلسوا إلى إدارة الرأى، فقال أحدهم من الوزراء الأربعة: الرأى أن يستصلح الملك برعيته، ويملأ قلوبها رغبات، ويحسن آمالها، فإن العدو إذا علم، كان ذلك حائلاً له عن الإقدام، وإن أقدم لقيناه كلنا بكلمة مجتمعة، وقلوب سليمة، فقال له رئيس الزمارمة: هذا لو كان فساد الرعية أوجبه جور وعسف، فيزال حكم الفساد بإزاحة علته، وأما فساد هؤلاء، فإنما أورده عليهم الجهل بمواقع الصواب، والنظر لترادف النعم، وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البطر، لم تزدهم التكرمة إلا فسادًا: الولد، والزوجة، والخادم، والرعية، فإن هذه الأربعة إذا هاجت لم تزدها المداراة والرفق إلا طغيانًا وهيجانًا، قال الملك: صدق الحكيم.

قال الوزير الثانى: الرأى أن تضرب بمن صلح من الرعية من فسد فيها، حتى ترجع راغمة منقادة، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله، فقال رئيس الزمارمة: هذا أنفع لعدوك من جيشه، وأدعى إلى طاعته من دعارته؛ لأنا نعلم أن الرعية لا تخلو من عاقل محروم، لم يمنعه من سل سيفه إلا الخوف، وإذا فعل الملك ما أشرت به، فقد أباحه سل سيفه، وإذا سل سيفه لم يسله لنا، بل إنما يسله علينا، ويتبعه الجمهور لما قد طبعوا عليه من حسد

الملوك، والتعصب للضعفاء، وقد قيل: أربعة من استقبلها بالعنف والردع فى أربعة أحوال هلك بها، وهى: الملك فى حال غضبه، والسبك فى حال هجومه، والفيل فى حال غلمته، والرعية فى حال هيجانها،ومعنى السبك الجدرى فى حال انبعاثه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة، فقال الملك: صدق الحكيم.

قال الوزير الثالث: الرأى أن يطلب الملك تعيين من فسدت طاعته بالأمناء من الجواسيس، فإذا تعينوا عوملوا بما تقتضيه أحوالهم من قلة أو كثرة، فقال رئيس الزمارمة: إن البحث الآن عن هذا خطر؛ لأنه لابد أن يفطن له، وإذا فطن له خاف المريب فحذر، ثم لا يخلو أمره بعد ذلك من حالين، إما يتحرك إلى جهة عدونا، فيعتمد بالنصائح والدلالة على العورات، ويتكثر علينا بأشكاله من الرعية، فينصرونه علينا، وإن لم يكونوا على مثل رأيه؛ لان من الرعية من أحقده الحرمان، ومن أحقده التأديب، وجمهور الرعية يتعصبون على الأجناد؛ لأنهم لم يسلموا منهم أذى واستطالة، فإن شمخوا أفسدوا المملكة، وإن قصدوا المسيء بالعقوبة المشاكلة له ولو كانوا أعداء له، كما أن الكلبان إذا تهارشا فرأيا ذئبًا، فإنهما يتركان تهارشهما ويجتمعان على الذئب، وإن كان مثلهما فى الخلقة لكونهما يعاديانه، فيصطلحان على التعاون عليه، وكذلك العامى لا ينظر إلى الملك من حيث تحققه فى الخلق الإنسانى، بل ينظر إليه من حيث نفوذه، وأنفته، وعلو همته، وجرأته، وشجاعته، وكثرة ماله، فينافره ويألف إلى العامى الذى هو يشاكله فى جهله وطبعه، وغير ذلك من أخلاقه.

ولا تخلو الرعية من ناسك أحمق، يظن أنه يغضب للدين، فيحمله حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة، فيكون أمره فى الرعية أنفذ من أمر الملك فى الجند، وقيل: ثلاثة إن كاشفتهم بامتحان ما عندهم فى ثلاثة أحوال خسرتهم، أحدهم: المؤدب إذا امتحنت ما عنده من العلم فى حال تأدبك. الثانى: صديقك إذا امتحنت ما عنده من البذل فى حال فاقتك. الثالث: زوجتك إذا امتحنت ما عندها من المحبة فى حال كهولتك، وامتحان الرعية فى هذه الحالة أشد شيئًا مما ذكرناه، وقد قال الحكماء: للدولة أمراض يخاف عليها أن تموت بها، أخطرها أربعة أشياء: ما يعرض للملك من الكبر، وما يعرض له من الغضب، فإن دولته فى هاتين الحالتين تضطرب لخروجه عن حد الاعتدال فى السياسة، والثالث ما يعرض له من الحرص، فإنه إذا حرص عسف وظلم. الرابع هيج الرعية، فقال الملك: صدق الحكيم.

فقال الوزير الرابع، وكان أوسعهم علمًا، وأفضلهم رأيًا: إنى وأصحابى كأصابع الراحة فى حاجة بعضها إلى بعض، وقوام بعضها إلى الحاجة ببعض، وكل منا يستمد من نور الملك ونور عقله بنظره إلينا، كاستمداد النجوم الدرارى من نور الشمس، وأنى غير ما يراه أصحابى لا مبرقعًا عليهم، ولا عائبًا إلى رأيهم؛ لأن القبول والرأى والرد إلى الملك لا إلى غيره، فإن أذن الملك ذكرته، فقال الملك: قل يا أيها الوزير الناصح، فلك ولأصحابك عندنا الثقة بكم والكرامة لكم؛ لأنكم فى المناصحة لنا وغيرها كالحواس الخمس للقلب، فسجدوا له، ثم رفعوا رءوسهم، فقال: إن الرعية قليلة النظر فى العواقب، غير متحفظة من المعاطب، وقد دب فيها سم الفساد، ومكاشفها الآن خطر، والظفر بها وهن فى الملك، والعدو قوى الطمع لا مندوحة لنا عن محاربته، فإن رأى الملك أن يصرف همته أولاً إلى الاستظهار باتخاذ معقل حريز يأمن فيه أهله وخواصه وذخائره ومن خلصت نيته من رعيته، فإنى أعرف فى مملكته معقلاً شاهقًا يطل على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب، وهو مع ذلك لذيذ الهواء، كثير الماء، وقد كان بعض أسلاف الملك اثر فيه آثارًا محكمة، فإن رأى الملك أن يتم به سعى سلفه، ثم يودعه ذخائره ويجعله للإقامة استظهارًا، ثم يلقى عدوه إن قدم على بلاده، فإن ظهرت خيانة أنصاره انحاز بأوليائه إلى ذلك المعقل، وألزم نفسه الصبر وانتظار الفرج.

قال: فسر الملك برأى الوزير، ووقع إجماعهم والحكيم أيضًا على ترجيحه، فركب الملك فى خاصته وجماعته، حتى أتى ذلك المعقل، فحشد إليه الأعوان، وألزمهم الإسراع فى إكمال بنائه، وبادر من فوره، فنقل إليه خاص بيوت أمواله، ونفائس ذخائره، وخزائن سلاحه، وشحنه بالأقوات والأطعمة، وهو مع ذلك يسد الثغور. وإن المرزبان اقتحم أطراف بلاده بالجيوش المتوفرة، ونازل الثغور، وظهرت دعاة كسرى فى من استعمده فى تلك الناحية، ومن استماله من أهلها، فظهر المرزبان على من نازله، ثم جعل يطوى بلاد الملك لا يمتنع عليه مرام، حتى وافته جنوده، فدافعته بعض المدافعة، فانهزم من فسدت نيته، وانهزم المناصحون إلى ذلك المعقل، واستوى المرزبان على تلك الأرض، وانحاز الملك وأتباعه المناصحون إلى ذلك المعقل، فسار خلفه المرزبان حتى أشرف على معقله، فرآه مداعمًا ومعقلاً مانعًا، فلم يمكنه النزول بساحته، فرجع من فوره إلى البلاد، فولى فيها الولاة والعمال، واستقامت المملكة إلى المرزبان.

ثم أن الفرس جعلوا يعاملون أهل الهند بالقوة والفظاظة، ويعبثون بهم ويسخرون

منهم، فبدت الشحناء فى النفوس، ورأى أهل الهند خراج بلادهم يحمل ويصرف إلى غيرهم، وقد دخلوا تحت حكم الأعاجم، وداخلتهم الغيرة والحمية، فعرفوا فضل ما كانوا فيه، ومشقة ما صاروا إليه، فتوقف المرزبان عن ردعهم لئلا يوحشهم، فكان أمرهم إلى زيادة، وأما ملكهم، فإن وزراءه أشاروا عليه بالصبر، وكف الأذى، وبسط العدل والإحسان، وبذل المال، والصفح عن الجرم، وتألف المستوحشين، فكانت سمعته تزداد حسنًا، والنفوس إليه ميلاً، والألسنة إليه شكرًا، والمرزبان بعكس ذلك.

واتفق أن غلامًا من عمال المرزبان على بعض الثغور ساء السيرة، فقام إلى ناسك من نساك الهند يعظه، فغضب عليه، وأمر بقتله، فثار أهل البلد على العامل فقتلوه، فبلغ المرزبان الخبر، فجاء بجنوده، فانحاز أهل تلك الناحية إلى حصن ملكهم، ثم ثارت الهنود فى البلاد على ولاتهم من العجم فقتلوهم، وخرج الملك من حصنه، فجمع إليه أهل البلاد، وسار المرزبان راجعًا إلى بلاده لما قامت عليه الرعية، وخرج من تلك المملكة، وعاد الملك إلى دار مملكته، فجرى على سنن العدل، قامعًا للشهوات، باذلاً مجهوده، مستعملاً ما أفادته التجارب من الأدب حتى بلغ أجله.

الحكاية الثانية: قيل: لما عزم الأمين على انتزاع العهد بالخلافة من أخيه المأمون، وكان المأمون أميرًا بخراسان، وكتب إليه الأمين يستدعيه ويذكر حاجته إليه، وأنه يريده لأمر مهم تضيق عنه الكتب، وأن جواسيس المأمون وعيونه ببغداد كتبوا إليه يعرفونه أن أخاه الأمين يريد تحويل الخلافة عنه إلى ولده موسى الناطق، فأطلع المأمون خاصته على الخبر، واستشارهم فى أمره، فأشار عليه أن يثبت مكانه وينتظر الفرج، ويكتب إلى أخيه مكتوبًا يعتذر له ويتعلل بأعلال، ففعل ذلك، فعلم الأمين أنه قد فطن لما يراد به، وآيس من نتاج مكيدته، فحينئذ دعا الناس إلى خلع المأمون من الخلافة.

ثم التفت إلى على بن موسى بن هامان، وشاوره فى أمر خراسان بعد ذلك، وأن يصطنع إلى أهلها بجلائل الصنائع، ويغمرهم بالإحسان والعدل، فضمن له ما يريد منها، فجهزه الأمين بأحسن جهاز، وولاه خراسان، وبعد ذلك جهز معه جمهور جنوده، فخرج على بن موسى بالجنود طالبًا خراسان، فبلغ ذلك إلى المأمون، فاضطرب منه، وعلم أنه يعجز عن مقاومة على بن موسى؛ لميل أهل خراسان إليه ومحبتهم له، فركب إلى منتزه له يشاور وزراءه فى تدبير أمره، فعارضه فى الطريق شيخ مجوسى قد انجذب من هرمه وكبره، فناداه بالفارسية مستغيثًا به من مظلمة نالته، فلما نظر المأمون إلى هرمه

وكبر سنه، رق له، وأمر أن يحمل على دابة إلى الموضع الذى قصده، ويدخل عليه بغير استئذان.

ولما استقر المأمون ووزراؤه فى هذا الموضع، أدخل عليه ذلك المجوسى، فأمره بالجلوس فى حاشية المجلس، ثم أقبل على خاصته وأخبرهم بما انتهى إليه من أمر على ابن موسى، وأمرهم بإدارة الفكر فى الرأى فى ذلك، وهو يظن أن ذلك الشيخ لا يحسن العربية، فقال أحد الوزراء: الرأى اصطناع أجناد من العوام الذين لا يعرفون على بن موسى، فتلقاه بهم قبل دخوله خراسان، فقال الوزير الثانى: الرأى أن تبادر بالإرسال إلى أخيك معتذرًا ومنقادًا لما أراده منك اليوم، ومنتظرًا نصر الله تعالى فى غد، فإنك مكره على الخروج من عهدة الخلافة كرهًا لم يخف على أحد من الناس، فهو حق لك متى أمكنك طلبته، وكنت فيه على حجة ظاهرة.

وقال الوزير الثالث: الرأى أن تجتمع بمن تثق من موالاته من ذى النجدة والشجاعة، فتزيح عللهم، وتقصد بهم بعض هذه البلاد الكافرة من الممالك المجاورة لنا، ثم نصدقهم القتال، فلعل الله تعالى أن يظفرنا بهم، فنصير بعد إلى مملكة منيعة، ويفزع إلينا من كان على امتثال أمرنا، فنمتنع ونجاهد حتى يقضى الله أمره، وقال الوزير الرابع: الرأى أن تستغيث بملك الترك مستجيرًا به ومستعينًا على أخيك الغادر، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به.

فلما سمع المأمون كلامهم جميعًا، قال لهم: قوموا عنى حتى أنظر فيما ذكره كل واحد منكم، ثم التفت إلى الشيخ فناداه، ورفق به، وسأله عن حاجته، فقال له: كنت جئت لحاجة، فعرض لى ما هو أوكد منها، فقال له المأمون: تكلم ما فى نفسك، فقال: أيها الملك، لا تصدنك حقارة قدرى، فإن الدرة النفيسة لا يزرى بها حقارة الغواص، فقال له المأمون: تكلم أيها الشيخ بما عندك، قال: إنى سمعت ما أشار به القوم عليك، وكل منهم مجتهد فى الإصابة، وإنى لست أرضى شيئًا مما قالوه، وإنى وجدت فى الحكم الذى أخذها آبائى عن آبائهم: إنه ينبغى العقل إذا دهمه ما لا قبل له به، أن يلزم نفسه التسليم لأحكام الحكيم، واهب العقل، وقاسم الحظوظ، ولا يترك مع ذلك الاندفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر أمن الغدر.

فقال له المأمون: إن هذا الرجل الذى قصدنا ليملك منا البلاد لا يمكننا مقاومته، قال الشيخ: ينبغى أن تمحو هذا من نفسك، ولا تصطفى من ينطق به، فإنه ما كثر من كثره

البغى، ولا قوى من قواه الظلم، وإن أخاك ظالم لك، باغ عليك، فهو هالك لا محالة، وأنت منصور عليه ظافر به، وسأحدثك حديثًا إن حذوت مثاله نلت مناله، فقال المأمون: هات يا شيخ، قال: إن الخنشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك الفرس، وأراد إطلاقه، أخذ عليه العهد لا يغزو بلاده، ولا يقصده بمكروه، ولا يتعرض إليه بسوء، ووضع فى أقصى أرض الهياطلة صخرة، وتحالفا على أن لا يتجاوز أحد منهما تلك الصخرة بجيش ولا بمكروه لصاحبه، ثم أطلقه بعدما استوثق منه الخنشوار بالعهود.

فلما وصل فيروز إلى دار ملكه، دخلته الحمية والأنفة، وعزم على غزو الخنشوار، وعلى أخذ بلاده، واستيفاء ثأره، فجمع وزراءه وشاورهم فى ذلك، فحذروه النكث، وخوفوه عاقبة البغى والغدر، فما ردعه ذلك عما عزم عليه، فذكروه أيمانه التى حلفها للخنشوار، والصخرة التى بين المملكتين، فقال: إنى عاهدته أن لا أتجاوزه بجيوشى، وإذا أنا بلغتها حملتها بين يدى جيوشى، ولا يتجاوزها أحد منهم، وإذا فعلت ذلك، فلا أكون ناكثًا ولا غادرًا، فلما سمعوا ذلك منه، علموا أن الهوى قد وقف به على حد الرضى بهذا القول والتأويل، فأمسكوا عنه.

ثم أن فيروز جمع مرازبته، وهم أربعة، من كل مرزبان منهم خمسون ألف فارس، وأمرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة، فلما فعلوا ذلك سار بهم فيروز، وظن أن جيوش جنده لا غالب لها لكثرتها ولشدة شوكتها. قال: فعارضه موبذان فى طريقه، فقال: أيها الملك لا تفعل، فإن رب العزة وخالق العالم يمهل الملوك على الجور، ولا يمهلهم إذا أخذوا فى هدم أركان الدين، وإن العهود من أركان الدين، فلا تتعرض له بسوء فتهلك، فلم يلتفت إلى كلامه، وسار راكبًا هواه فى معصيته، مخالفًا نصحاءه، حتى انتهى إلى الصخرة التى جعلها حاجزًا بين أرضه وأرض الخنشوار، فحملها على فيل وسيرها بين يدى عسكره، وإن الخنشوار لما بلغه مسير فيروز إليه، حمل نفسه على التثبت، وفوض أمره إلى الله عز وجل، وسأله سبحانه وتعالى أن ينتقم ممن خان عهوده ومواثيقه التى لم يرع حقها فيروز إليه، ولا خاف عاقبة نكثها، وأخذ مع ذلك فى الجزم فى سد الثغور، وجمع جنده.

ثم خرج فيروز بعدما توسط أرضه، وجمع جنده وأتباعه، فحمل هو وجماعته، وصدقوا فى حملتهم، فانكشف فيروز منهزمًا، وترك ما كان بيده، فقتل الخنشوار رجاله،

ونهب أمواله، وأمعن فى طلب فيروز، فظفر به وقتله، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه، واستولى على بلاده، كل ذلك بسبب الغدر ونقض الميثاق، وكذلك يكون أخوك بسبب نقضه لميثاق أبيك وغدرك، فإنك الظافر به لا محالة.

فلما سمع المأمون كلام الشيخ تهلل وجهه، وطابت نفسه، وقال: قد سمعت مقالتك، فصادفت منا قبولاً لها، وشكرًا عليها، وسرورًا بها، ثم حياه وأكرمه وعمل برأيه، فأنجح الله عمله، وبلغه من الخلافة أمله.

الحكاية الثالثة: قيل: إن عبد الملك بن مروان لما فزع لقتال عبد الله بن الزبير، وخرج بالجيش متوجهًا إلى مكة، شرفها الله تعالى وعظمها، وكان قد استصحب معه عمرو بن سعيد بن العاص، وكان عمرو قد انطوى على دغل نية، وفساد طوية، وطمع فى نيل الخلافة، فلما كان ببعض الطريق تمارض عمرو بن سعيد، وسأل عبد الملك بن مروان فى العود إلى دمشق فأذن له فى العود، فلما دخل دمشق صعد المنبر، فخطب الناس خطبة نال فيها من عبد الملك، ودعا الناس إلى نزعه من الخلافة، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه، واستولى على دمشق، وحرس صورها، وحمى ثغورها، وبذل الرغائب.

ثم اتصل الخبر إلى النعمان بن بشير أمير حمص، فنزع بيده من الطاعة أيضًا، وكذلك صنع ظفر بن الحارث أمير قنسرين، وكذلك نايل بن قيس ملك فلسطين، ثم تسوف أهل الثغور للخلاف، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فخرج على وزرائه وأهل خاصته، وأطلعهم على ما بلغه، وقال: هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن، وهذا النعمان بن بشير أمير حمص، وظفر أمير قنسرين، ونايل بن قيس أمير فلسطين، قد نزعوا أيديهم من الطاعة، وبايع الناس لابن سعيد، وقد تسوف أهل الثغور للخلاف، فما عندكم من الرأى؟.

قال: فلما سمعوا مقالته، ذهلت عقولهم، ونكسوا رءوسهم، فقال لهم: ما لكم لا تنطقون؟ فهذا وقت الحاجة إليكم، هل ترون الرجوع إلى دمشق أصوب، أم التوجه إلى ما خرجنا إليه أحزم، أم اللحاق بفلسطين، أم النزول على حمص واستنزال النعمان منها، أم التوجه إلى مصر فى هذا الوقت أغنم؟ كيف ترون الرأى؟ قال أفضلهم: لا رأى عندنا فى هذا، والله لقد وددت أن أكون طيرًا على عود من أشجار تهامة حتى تنقضى هذه الفتنة، قال: فلما سمع عبد الملك كلامه، علم أنه لا غنى له عندهم، فقام وأمرهم بلزوم

مواضعهم، وركب من فوره منفردًا، وهو يقول:

تكاثـرت الظبـاء على خـداش ... فمـا يـدرى خـداش لمن يصيـد

وأمر جماعة من أصحابه أن يركبوا متباعدين منه، بحيث يرون إشارته إذا أشار إليهم، وسار ثم تبعه القوم، فلم يزل سائرًا منفـردًا، حتـى أتـى إلى شـيخ كبـير السـن، ضعيـف الجسم، يجتنى العفص من الأشجار، فسلم عليه عبد الملك، وقال له: ألك علم بمنزل هـذا العسكر؟ قال: بلغنى أنهم نزلوا بأرض كذا وكذا، قال: فهل بلغك شيء بما يقول النـاس فى أمر الخليفة؟ قال: فما سؤالك عن ذلك؟ قال: إنى أريد اللحاق بـه والدخـول عليـه، وقد سمعت أن عمرو بن سعيد خالفه إلى دمشق واستولى عليها، فقال الشيخ: إنى أراك أديبًا، وأحس بك حسيبًا، فهل تحب أن أنصح لك؟ قال: نعم أيهـا الشـيخ، قـال: ينبغـى لك أن تصرف نفسك عن هذا الأمر الذى ترغب إليه، فإن الأمير الذى أنت قاصده قـد انحلت عرى ملكه، وقد نـابذه أتباعـه، واضطـرب فـى أمـوره، وإن السـلطان فـى حـال اضطراب أموره كالبحر فى حال هياجه، لا ينبغى أن يقرب أحد منه.

فقال له عبد الملك: إن الحيلة لم تبلغ بى فى مغالبة نفسى بك مـا ترغـب إليـه، وإنـى أجدها ترغب إلى صحبة هذا الأمـير رغبـة شـديدة، ولابـد لى مـن ذلـك، فهـل لـك أن تخبرنى بما تراه من الرأى فى تدبيره بهذه الخطوب التى دهمته حتى أعـرض ذلـك الـرأى عليه، وأتقدم به عنده، فلعله يكون سببًا لقربى منه؟ فقال الشـيخ: إن حكمـة الله تعـالى وعزته لتقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل، وإنى لأظن أن هـذه النازلة التى نزلـت بالخليفـة مـن النـوازل التـى لا ينفـذ فيهـا الـرأى، وإنـى أكـره أن أرد مسألتك بالخيبة، فها أنا أقول لك فيمـا سـألتنى عنـه قـولاً أقضـى بـه حقـك، وإن كـان الخطب عظيمًا.

قال عبد الملك: إنى لأرجو الله أن يرشدك ويرشدنى بك، قال الشيخ: إن عبد الملـك خرج لمحاربة عبد الله بن الزبير، فظهر من مشيئة الله تعالى مـا صده عـن ذلـك، وإنـى مشير عليك أن تتفقد حال عبد الملك، فإن رأيته قصـد عبـد الله بـن الزبـير، فـاعلم أنـه مخذول لا محالة؛ لأنه لج فى طلب ما منع منه، وإن رأيته رجع من حيث جاء، فـارج لـه السلامة والنصر؛ لأنه مستقبل، فقال له عبد الملك: أيهـا الشـيخ، أوضـح لى مـا ذكـرت لينطبع فى فهمى صورته، فقال الشيخ: إن عبد الملك إذا قصد عبد الله بـن الزبـير، كـان فى صورة ظالم؛ لأن ابن الزبير لم يعصه قط، ولا وثب على مملكته، فأما إذا قصد عمرو

ابن سعيد بدمشق، فإنه يكون فى صورة مظلوم؛ لأن عمرو أرجل من رعيته طلب الخلافة لنفسه، واغتصب دار ملك لم تكن له ولا لأبيه، بل كانت لعبد الملك وأبيه، ثم إن عمرو بن سعيد ظالم له من وجه آخر، وذلك أنه ابن عم عبد الملك، وعز عبد الملك عز له، وقد كان محسنًا إليه، فلما خرج عبد الملك لتشييد عز عمرو منه أوفر حظ فيه، غدر به، ونكث عهده فخذله، ثم سعى فى ضره، وأشمت به عدوه، فرجوع عبد الملك إلى دمشق فهو أشبه بالتفويض والتسليم لأمر الله تعالى، ولا شك أن يظفر بالتفويض والتسليم بمن خانه وبغى عليه ونقض عهده، فإن الباغى مصروع، وإذا ظفر به استقال النعمان وظفر ومن حواليهما من الثغور، ورجعوا إلى الطاعة عند معاينة الظفر بعمرو بن سعيد.

قال: فسر عبد الملك بمقابلة الشيخ، وعزم على اتباع رأيه، وقال: جزاك الله خيرًا يا شيخ، قد حسنت فيما أشرت، فأخبرنى باسمك وأين منزلك؟ فقال الشيخ: وما تريد من ذلك؟ قال: لأقضى حقك، فارفع إلىَّ حوائجك، فإنى عبد الملك، فقال الشيخ: وأنا أيضًا عبد الملك، فهلم بنا نرفع حوائجنا جميعًا إلى من أنا وأنت له عبدان، ثم تركه الشيخ وانصرف. قال: فذهب عبد الملك وعمل برأى الشيخ فنجح، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

* * *

الباب العاشر

فى معرفة أصول السياسة والتدبير

اعلم أن الملك العظيم يحسن به أن يكون فى تصاريف تدبيره وسياسة أموره متشبهًا بطبايع ثمانية، وهى: الغيث، والشمس، والقمر، والريح، والنار، والماء، والأرض، والموت، أما الغيث، فإنه ينزل متواترًا فى أربعة أشهر من السنة، فيساوى به بين كل محلة مشرفة، وموضع منخفض، ويغمر كلا من مائه بقدر موضعه فى ارتفاعه وهبوطه، فتأخذ تلك البقاع منه ما تغذى نباتها فى الثمانية أشهر الباقية من السنة، وكذلك ينبغى للملك أن يعطى جنده وأعوانه فى أربعة أشهر للثمانية أشهر الباقية، فيجعل رفيعهم ووضيعهم فى الحق الذى يستوجبه فى القيامة بينهم على حسب ما يراه من المصلحة على قدر مراتبهم، كما يسوى الغيث بين بقاع الأرض.

وأما الشمس، فإنها تستقصى بحرها وحدة وقعها فى الثمانية الأشهر الباقية من السنة، فكذلك الملك باستيفاء جميع حقوقه من رعيته وماشيتهم، وغير ذلك من الحقوق الواجبة له عليهم، كما تستقصى الشمس نداوة الغيث من الأرض، وأما القمر، فإنه إذا طلع لتمامه انتشر نوره على الخلق، وآنس الناس لضوئه وإشراقه، واستوى فى ذلك القريب والبعيد، وكذلك ينبغى للملك أن يكون فى بهجته ورتبته وإشراقه فى مجلسه، وإيناس الرعية، وعدله مثل القمر فى طلوعه وإشراقه، فلا يختص شريفًا دون وضيع بعدله وإيناسه، ولا يحجب عنهم فتظلم أحوالهم، ويزول أنسهم، ويقل انتعاشهم كما إذا احتجب القمر فى الليالى السود.

وأما الريح، فإنها بلطفها محيطة بالعالم السفلى، وكذلك ينبغى للملك أن يكون بلطفه وحذق جواسيسه وعيونه، محيطًا بمعرفة أحوال رعيته، وقواده، وولاة ثغوره، وأعماله، وحاشيتة، وجنده، عارفًا بخبر أعدائه ونظرائه، عالمًا بما يعملون وما يأتمرون بواسطة العيون الثقاة، وأما النار، فيكون مثلها فى الحدة على أهل الزعارة والفساد وأصحاب الشر، لا يبقى أحدًا منهم، ولا يذر ولا يترك لهم عينًا ولا أثرًا، وأما الماء، فإنه مع لينه وسلاسته يقتلع الأشجار العظيمة، ويقهر من قاومه بالسباحة، وكذلك ينبغى للملك أن يكون لينًا لمن لاينه، شديدًا على من خالفه، ينصب لأعدائه الغوائل، مع لينه ورقته حتى يقلعهم كما يفعل الماء.

وأما الأرض، فإنها توصف بكتمان السر، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، وكذلك ينبغى للملك أن يكون مثلها فى جميع ذلك، وأما الموت، فإنه يأتى بغتة، ويقاض أهل اللذات على ما هم عليه، ولا يقبل ممن نزل به رشوة، وكذلك ينبغى للملك أن يهاجم عدوه من حيث لا يشعر به، ويفاجىء أهل العداوة والزعارات فى حال غفلاتهم كما يفعل الموت.

واعلم أن المملكة مثلها مثل البستان، فينبغى أن يسوسها الملك فى غالب الأحوال كما يسوس صاحب البستان بستانه، فمن ذلك أن ينتخب أهل السكينة من جنده وذوى الشوكة من أعوانه، فيجعلهم فى أقاصى بلاده، وأطراف مملكته؛ ليحفظ بذلك الرعية كما يفعل صاحب البستان، فإنه يخرج الشجر ذوات الشوك وما فضل من العيدان، فيحطه على الأشجار المثمرة والزراريع الطيبة ليقيها من أهل الفساد والزعارة، ويخرجهم من بينهم، أو يصلحهم بإقامة الحدود بالحقوق وإظهار السياسة، فإنه إذا فعل

ذلك صلحت أحوال الرعية وانتعشت وكثر خيرها، كما يفعل صاحب البستان، فإنه ينقى بستانه من الحشيش الذى لا فائدة فيه، ويخرج ما فيها من الشوك والنبات الخبيث، فينتعش زرعها، وتنمو أشجارها، ويطيب ثمرها، ومتى حل خراج الملك أو تعين له حق على رعيته من أموال الثمار والغلال، ولم يقبضه فى وقته، فيكون معرضًا للضياع بآفات الزمان، كما يفعل صاحب البستان، فإنه لا يؤخر اجتناء ما صلح من ثمره، وما طلع من ورده؛ لأنه إن لم يبادر لالتقاطه سقط على الأرض، وأحاطت به الآفات.

وينبغى أن يتعهد أبناء جنده وأعوانه الذين ماتوا فى خدمته وطاعته، ويخرج لهم من بيت ماله رزقًا يقوم بكفايتهم، فإنهم أرجى للملك عند بلوغهم، وأشد نصحًا من غيرهم فى خدمته، كما يتعهد صاحب البستان خوالف شجره الهالك بالسقى والتربية؛ لما يرجوه من جناءها لاستطابة ثمرها، ومتى تباغض قائدان من قواده وكانا متجاورين فى موضع، فينبغى أن يفرق بينهما؛ لأن خيرهما لا يرجى مادامًا متجاورين فى موضع، وربما نتج منهما أو من أحدهما ما لا يمكن الملك معه ائتلافهما، كما يفرق صاحب البستان بين الشجرتين إذا تداخلت أغصانهما؛ لعلمه أن خيرهما لا يرجى مادامًا كذلك.

واعلم أن الرعية إن كانت ثمارًا مخبئًا، ودخائر مقتناة، وسيوفًا منضاة، فإن لها نفارًا كنفار الوحوش، وطغيانًا كطغيان السيول، ومتى قدرت أن تقول قدرت أن تصول، وهم ثلاثة أصناف، فينبغى للملك أن يسوسهم بثلاث سياسات، صنف من أهل العقل والديانة والفضل، يعلمون فضل الملك وطول عنائه، ويرثون لشقة إعيائه، فسياسة هؤلاء تحصل بالبشر عند لقائهم، واستماع أحاديثهم، وحسن الإصغاء إليهم، وصنف فيهم خير وشر، فسياسة هؤلاء تحصل بالترغيب والترهيب، وصنف هم السفلة الرعاع أتباع كل داع، فسياسة هؤلاء بإخافة غير مقنطة، وعقوبة غير مفرطة، لا يتحقق ذلك منهم إلا من يكون أغلب أوصافه عليه الرحمة للرعية؛ لأن الملك إنما يتميز عن السوقة بفضلين، فضيلة ذاته، وفضيلة آلائه، أما فضيلة ذاته، فخمس خصال: رحمة تشدد رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذب عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحرمة ينتهز بها الفرص إذا أمكنه، وأما فضيلة آلائه، فستة: وفور أمواله، وكثرة أجناده، وحصانة معاقله، واتخاذه المبانى الوثيقة، وإعداده الملابس السنية، وتحصيله الدخاير النفيسة.

ولا ينبغى للملك أن يعتمد على فطنته، وقوة حيلته، وكثرة ماله وجنده، وحصانته،

ومعاقله، فيترك الاستعداد للنوازل ولكل ما يجوز وقوعه من الحوادث، فيكون مثله كمثل خطيب اعتمد على فصاحة لسانه، وقوة بديهته، وأهمل مراعاة وقع القول وترتيبه، ثم صعد المنبر، فيوشك أن يستولى عليه العى عند الحاجة، بل ينبغى أن يتقدم فى الحيلة قبل نزول الحادث، فإن الأمور إذا نزلت ضاقت عنها الحيل، وإذا عرف الملك وجه الكيد الذى يكيد به عدوه، فينبغى أن يحترس من مثله؛ لأنه إذا لم يتحرس من مثله، كان بمنزلة الرامى الخاسر الذى لا تدبير معه، فهو إن أصاب برميته، فإنه مستهدف لرمية غيره، وكذلك الملك إذا احتال على عدوه بضروب الحيل، ثم إنه لم يتحفظ من كل ما يظن أن يبلغ منه عدوه، كان عمله معونة عليه، غير نافع له فى العاقبة. وقد كان يقال: احترس من تدبيرك على عدوك، كاحتراسك من تدبيره عليك، فرب هالك بما دبر، وساقط فى البئر الذى حفر، وجريح بالسلاح الذى شهر.

وينبغى للملك أن يأخذ فى سائر أموره بالحزم، وصدق العزم، ولا يترك الاحتراس والحذر، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحزم سوء الظن»[1]، ولا يكون ظنه حقيقة، بل الحذر والاحتياط. وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: أن تحذر من كل ما يمكن وقوعه، قيل: فما العجز؟ قال: أن تأمن مما يمكن وقوعه، وهنا شعر:

لا تترك الحزم فى شىء تحاذره ... فإن سلمت فما فى الجزم من باس
ترك الفتى الحزم فيما خاف منقصة ... وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

وإذا حاول الملك أمرًا عرض له، فليشمر فى طلبه عند إمكان الفرصة، ولا يتركه عنه لصغره، فإن وثبة الأسد على الأرنب هى التى تقدمه على الفيل، ومتى استهان الملك الذى حقره عاد كبيرًا، فإن القروح التى تظهر فى الجسد إذا استهان بها الإنسان، صارت إلى أعظم العلاج وأكبر المداواة، ولهذا شعر:

ولا تحقرن عدوًا رما ... ك وإن كان فى ساعديه قصر
فإن السيوف تحز الرقا ... ب وتعجز عما تنال الإبر

وإذا وقع الملك فى أمر من عدوه يخاف فيه على نفسه وسلطانه، فينبغى أن يعطى بلسانه كل ما يرضى عدوه مظهرًا للرقة والانقباض، وهو مع ذلك مستيقظًا محترسًا

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبى حاتم فى مراسيله (١/١٢٤) ح (٤٤٥)، وعزاه العجلونى لتمام فى فوائده، عن ابن عباس رفعه.

مستعدًا للوثبة عليه إن أمكنته الفرصة، حتى ينال فيها حاجته، ولهذا شعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره   وامزج له إن المزاج وفاق
فالنار بالماء الذى هو ضدها   تعطى النضاج وطبعها الإحراق

فإن دهمه ما لا طاقة له به فى أمر من أمور مملكته، وأشرف منه على أن يذهب كله، ورأى أن يتلطف بالحيلة فى أن يرجع إليه بعضه فليفعل ذلك، ويكون راجيًا لا يستخف به الأسف والأنف والتمادى حتى يذهب كله فيكون مغلوبًا، فإن العاقل إذا أشرف له ابنان على الهلكة، وطمع فى نجاة أحدهما بموت الآخر، فإن نفسه تسمح بموته لنجاة أخيه، ولا يداخله الإشفاق عليهما والجزع فيهلكا جميعًا.

وإذا عادى الملك رجلاً، فلا يعادى لأجله كل ما شاكله، فإنه ربما انتفع ببعضهم انتفاعه بأهل مودته، فإن السيف الذى يقتل بحده، هو من جنس الدرع الذى يتحصن به عن مضارة حد السيف، ولا ينبغى للملك أن يشتد جزعه على ما فاته وذهب عنه، فإن فعل ذلك تعجلت له المساءة بما لا يقدر على ارتجاعه، وبدرت له الحسرة على ما لا يقدر على استدراكه، ثم يشغله ذلك عن تدبير مستأنف أمره، وصلاح باقى شأنه، وربما أفضى به الحال إلى الهلاك، فإن شدة والجزع تهلكه.

فقد حكى أن ملكًا من ملوك الفرس جلس على سريره فى يوم نيروز، وجعل الناس يهدون له أصناف الهدايا، فدخل عليه الموبذان ومعه طبق مغطى فأهداه إليه، فلما كشف عنه رأى فيه فحمتين، فقال الملك: ما هذا؟ فقال: أيها الملك، أحدهما باز والأخرى دراجة، وإنى رأيت الباز أرسل على الدراجة فتبعها وهى تطير بين يديه إلى أن أتيا أجمة فيها نار، فحمل الجزع الدراجة على اقتحامها، وحمل الباز الحرص على افتراسها فاحترقا جميعًا، فرأيت أن خير الهدايا هذه الموعظة، فأهديتها لك، فاجتنب أيها الملك الإفراط فى الجزع والحرص، فإنهما سائقان إلى الهلكة، فقال الملك: ما أهديت إلىّ هدية أنفع من هذه الهدية.

ومتى صنع الملك بخطأ الرأى شيئًا فأصاب فيه، فلا يعاوده ثانيًا طمعًا فيما ناله أولاً، فإن من وطىء حية مرة فنجا منها، فليحذر أن يتعرض لها بالوطء مرة أخرى. واعلم أن كبار أعوان الملك ومشايخ دولته الذين صحبوا أسلافه من الملوك، هم أقوى دعائم مملكته، وأثبت أركان دولته؛ لأنهم وإن براهم الزمان بحده، فقد بقى كرم وجوههم،

ومحض مودتهم، فهم يزدادون فى النصح اجتهادًا، وفى البؤس صبرًا وجلادًا، ومثلهم كمثل دعائم الساج للبيت، فإنها كلما مر عليها الزمان، ازدادت قوة وصلابة، حتى إن الأرضة لو حاولت نقب عودها، لم ينفذ عملها فيها، فيكون البيت بها أقوم وأصلب.

وينبغى للملك أن لا يصحب من أعوانه كذابًا، ولا مطبوعًا على شر؛ لأن الكذاب إذا حدث كذب، وإذا حدثه الملك لم يصدقه؛ لما يظن فى نفسه، والمطبوع على الشر غير تارك لطباعه؛ لأنها أملك به، فيكون الملك معه على خطر، ولا يطمع الملك فى استصلاحهما ونقلهما عن طباعهما، فإنهما بمنزلة القرد الذى يطعم الدبس والحلاوة ليسمن ويحسن وجهه، فلم يزدد وجهه إلا قبحًا، ومتى كان الملك يكل ضبط أموره وإقماع عدوه لقوم ليسوا منه على ثقة، ولا بحفاظ لأمره، فهو منهم على أعظم خطر، حتى يحملهم ما استطاع على الرأى والأدب الذى بمثله تكون الثقة والاستعانة بهم، ولا يغرنه منهم قوته بهم على غيرهم، فإنما هو فى ذلك كراكب الأسد يهابه من ينظر إليه، وهو لمركبه أهيب.

ومتى أسرف الملك فى توسعة الأرزاق على جنده أبطرهم، ومتى ضيق عليهم أحقدهم، فيكون فى هاتين الحالتين متعرضًا للهلاك، فإن الأسباب التى تجر الهلكة ثلاثة، أحدها من جهة الملك، وهو أن تغلب شهواته على عقله، فلا تطرأ له لذة إلا قضاها، ولا راحة إلا افترصها، الثانى من جهة الوزراء، وهو تحاسدهم المقتضى لتعارض الآراء، فلا يسبق أحدهم إلى حق إلا فندوه وعارضوه، الثالث من جهة الجند وخواص الأعوان، وهو النكول وترك المناصحة فى الجهاد، وهم صنفان، الصنف الأول وسع عليهم الملك الأرزاق، فأبطرهم السرف والتنعم وافتراض اللذات، فبخلوا بنفوسهم، وخافوا عليها عند لقاء الأعداء، فمنعهم ذلك من الإقدام، الصنف الثانى قدر الملك عليهم أرزاقهم، فانطووا منه على حقد ونفاق، فنصبوا له الغوائل، وأسلموه عند النوازل.

وينبغى للملك أن يتعرف أسباب الفتن ونتائجها المفضية إلى اختلاف الكلمة، والخروج عن الطاعة؛ ليحسم مواردها، ويقطع أسبابها، فقد قيل: إن ملكًا من ملوك العجم كتب إلى حكيم من حكمائهم يقول: إن الحكماء قد أكثروا من أسباب وصف الفتن، فاكتب إلىَّ بما ينشبها وبما يميتها، فكتب إليه يقول: ينشبها ضغائن، ويقويها أطماع لم تقمعها هيبة وجرأة عامة يولدها استخفاف بالخاصة، ويؤكدها انبساط الألسنة بضمائر القلوب، وغفلة أمير ملتذ، ويقظة قوى محروم، ويميتها عز السالب، وذل

المسلوب، ودرك البغية، وموت الأمل، وتمكن الرعب، فكتب إليه: إن الذى وصفت كما وصف سواك، فأى الأمور أدفع لما ذكرت، فكتب إليه الحكيم: أخذ العدة لكل ما يخاف وقوعه، وإيثار الجد على الهزل، والعمل بالعدل فى الرضى والغضب.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن صف لى الفتنة حتى كأنى أنظر إليها، فكتب إليه الحجاج: إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتقيح بالشكوى، ويقوم بها الخطباء، وفسادها بالسيف، إن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، قال يومًا لبعض جلسائه وهو محصور: وددت لو أن رجلاً صدوقًا أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء القوم، يعنى الذين يحاصرونه، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنك تطأطأت لهم حتى ركبوك، وتغافلت عنهم فسلبوك، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حكمك، قال: صدقت اجلس، ثم قال: هل تعلم ما سبب ثوران الفتنة؟ قال: نعم، سألت عن ذلك شيخًا باقعة فى العلم، فقال: إن الفتنة يثيرها أمران، أحدهما أثيرة تضغن الخاصة، والثانى حلم يجرئ العامة، قال: فهل سألته عما يخمدها؟ قال: نعم، إن الذى يخمدها فى ابتدائها استقالة العثرة، وتعميم الخاصة بالأثرة دون غيرهم، فأما إذا استحكمت الفتنة، فلا يخمدها إلا الصبر، قال عثمان، رضى الله عنه: هو ذاك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

* * *

الباب الحادى عشر

فى الجلوس لكشف المظالم

اعلم أن جلوس الملك والفصل بين المتنازعين من أعظم قوانين العدل الذى لا يعم السلام إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا به، وقد كانت ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك، وأول من أفرد للمظلمات يومًا معلومًا يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر: عبد الملك بن مروان، وكان إذا وقف منها على مشكل، رده إلى قاضيه إدريس الأودى، فينفذ فيه الحكم، وكان إدريس المباشر، وعبد الملك الآمر، ثم زاد ظلم الولاة، وجور النواب بعد ذلك، فافتقرت الحالة إلى المباشرة، فجلس عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، فكشف المظالم، وهو أول من باشر ذلك بنفسه، وجعل يراعى السنن العادلة، ورد مظالم بنى أمية على أهلها، حتى قيل له وهو يشدد

عليهم: إنا نخاف عليك العواقب من ردها، فقال: ما من يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة إلا وقيته.

ثم جلس لكشف المظالم من خلف بنى العباس المهدى، حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها، ثم جلس لها من بعده الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون، وآخر من جلس لها المهتدى، ثم احتجبت الخلفاء؛ لتظاهر الترك وغيرهم عليهم، ودفعوا أمر المظالم إلى وزرائهم، ولما أفضى ملك الشام إلى الملك العادل نور الدين بن الزنكى، رحمه الله، بنى له دارًا فى قلعة دمشق، سماها دار العدل، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين، ويفصل بين أمر المتنازعين، ولديه الفقهاء وأئمة الدين، فيرجع إليهم ما أشكل عليه من أمور الشرع، وثبت القضايا، ويفصل كلما انتهى إليه فى ذلك اليوم، حتى جعل هذا سنة فى جميع مدائن الشام.

وحدثنى الفقيه أبو طاهر إبراهيم بن الحصين الحموى، قال: كنت عند الملك العادل محمود بن الزنكى، فى دار العدل بدمشق، وقد عرض عليه قصص خراج أملاك أهل الشام، فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معزة النعمان، قال: إنى قد عزمت على انتزاع أملاك أهل المعزة من أيديهم، فقد رفع إلىَّ أهل الخبر من الثقاة أن جميع أهل المعزة يتعرضون للشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه فى دعوى ملك، حتى يشهد ذلك معه فى دعوى أخرى، وإن الملك الذى بأيديهم إنما حصل لهم بهذه الطريقة، قال: فقلت: أيها الملك، إن الله تعالى أوجب عليك العدل فى رعيتك، والنظر للكشف، والتوقف فى الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعزة خلق كثير تواطؤهم على شهادة الزور، وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول لا يجوز.

قال: فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال: أمسكها عليهم، ثم اكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه، وقال: اكتب كتابًا إلى الوالى فى المعزة ليمسك جميع الملك الذى فى أيدى أهلها، حتى ليستدعى البينة، فكتب ووضع بين يديه ليضع علامته فيه، وإذا صبى على شاطئ النهر يغنى شعرًا:

اعدلوا ما دام أمركمو ... نافذا فى النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم ... إنكم منها على خطر
إنما الدنيا وزينتها ... طيب ما يبقى من الأثر

فلما سمع الملك ذلك، تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر إلىَّ، وقال: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم استدار إلى القبلة، وقال: اللهم أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه، وجعل يستغفر الله تعالى جميع ذلك اليوم.

وينبغى للملك إذا جلس لكشف المظالم، أن يستكمل مجلسه بحضور خمسة أصناف من الناس لا غنى عن حضورهم، ولا ينتظم نظر أموره إلا بهم، الصنف الأول الفقهاء والعلماء أصحاب الفتوى؛ ليرجع فيما أشكل، ويسألهم عما اشتبه فيه، الصنف الثانى القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت من الحقوق، وما جرى فى مجالسهم بين الخصوم، وتنفيذ القضايا والأحكام، الصنف الثالث العدول ومشائخ البلد؛ ليثبت ما يجرى بين الخصوم، وما يوجبه الشرع المطهر لهم من الحقوق، الصنف الخامس الكبار من حماة دولته وأعوانه وخاصته؛ لتظهر بهم الرهبة، وتحصل بهم الهيبة، فيخاف المعتدى، ويتظاهر المظلوم فينتصر، فإذا تشكل مجلس نظره بما ذكرناه، شرع حينئذ فى تصفح القصص وتنفيذ الأمور، والنظر فى أمور الرعية والولاة والعمال على ما قدمناه.

* * *

الباب الثانى عشر

فى أدب صحبة الملوك

إذا أخصك الأمير لخاصته، وجعلك من أهل مجالسته، فالزم الصمت، واستعمل الوقار، ولا تحدثه بادئًا، ولا تعد حديثك عليه ثانيًا، ولا تفصل حديثًا بحديث، ولا تعارض أحدًا فى حديثه، واخفض من صوتك، واختصر من لفظك، ولا تغتب أحدًا عنده وإن كثرت عيوبه وعظمت ذنوبه، وإذا جالست الملك فغض بصرك، وضم شفتيك، ولا تقولن فى غيبته ما لا تقوله فى حضوره، ولا تأمن أن تكون عليك عيون ترفع إليه أخبارك، وتورد عليه أسرارك، وأنشدنى بعضهم فى المعنى يقول شعرًا:

إذا صحبت الملوك فالبس ... من التوقى أعز ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى ... واخرج إذا ما خرجت أخرس

وإذا كان لك إلى الملك حاجة، فلا ترفعها إليه ما لم يكن وجهه بسيطًا، وقلبه نشيطًا، وليكن على مقدار حقك، لا على مقدار عزمك، وإذا طلبتها منه فقصر المقال،

وتوق الملال، ولا يحملك فرط ميله إليك على التبسط عليه فى السؤال، فتنحط رتبتك، وتذهب حرمتك، وإذا أقبل الملك عليك فأقبل عليه بوجهك، واصغ إليه بسمعك، واشغل بحديثه خاطرك، وبمنظره ناظرك، واستمعه استماع مستظرف لحديثه مستبشر به، واحذر أن تعاتب الملك على تقصير، أو تلومه فى تدبير، فإن ذلك يفضى إلى مقتك وبعدك منه بعد قربك، ولا تكاشفه بالنصيحة فى الخلوة، ولا تنبسط عليه فى الجلوة، فإن النصح فى الملأ تقريع، والتبسط عليه تضييع، ولهذا يقال شعر:

تعمدنى بنصح فى انفراد　　وجنبنى النصيحة فى الجماعه

فإن خالفتنى لتريد نقصى　　فلا تغضب إذا لم تعط طاعه

فإن النصح بين الناس ضرب　　من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإذا قربك بأنسه وأدناك من مجلسه، فالزم الاحترام، وقابله بالإعظام، ولا يخرجك ما تراه من أنسه إلى السماح ومكروه المزاح، وإياك وإزالة الحشمة، وإضاعة الحرمة والهزل والشره فى أكل الطعام، فإن هذه الحالة تدعو الملك إلى الملال، ولا تنادر فى مجلسه إنسانًا، ولا تحدق إلى الغلمان، وإذا دخلت على الملك فحيه بأحسن تحية، وتواضع إليه بالكلية، ولا تكثر من الدعاء له بحضرته، ولا تسأله عن حالته، ولا عن مبيته فى ليلته، ولا تكثر مدحه، ولا تظهر نصحه فى حضرته، فجميع ذلك من مساوىء الأخلاق والتملق والنفاق.

وإذا جلست على موائد الملوك، فلا تمكن فى الطعام شرهًا، ولا فى الأكل نهمًا، وكل مما يليك، وأكثر من المضغ فى فيك، واجعل نظرك إلى الطعام الذى بين يديك، ولا تنظر إلى ما حواليك، ولا تأكل بكل الأصابع، وقم عن المائدة وأنت جائع، ولا تحدق ببصرك إلى الطعام، ولا إلى ما حضر من طرائف الألوان، بل يكون نظرك إلى الملك عند كلامه، والإطراق عند مضغه لطعامه، ولا تنقل من الصحفة إلى الرغيف شيأ من اللحم، ولا تتعرض إلى حرمشة العظم، ولا تحول لقمتك من جانب فيك إلى الجانب الآخر، ولا يسمع لمضغك وبلعك صوت ظاهر؛ لأن المقصود من طعام الملك الشرف بمواكلته، والتجمل بلطف كرامته.

ومن قام من الطعام لغسل يده، فسبيله أن يبعد عن حضرته إلى الموضع الذى خص بمرتبته، ولا يبصق فى الطشت بصاقًا يعلو صوته، ولا يستعمل بيده التفرقع، ولا يدلك بالمنديل يديه، بل يمسح به فمه وشفتيه، ولا يظهر فى يديه شيئًا من الخلال على حال من

الأحوال، وأن لا يساوى الملك فى محبته، ولا يدنى رأس دابته من دابته، ولا يأخذ عليه مهب الريح فى مسايرته، ولا يركب فرسًا شحتًا شعثًا ولا حرونًا[1] فيقف عنه، ولا كثير الصهيل، ولا ما فيه عيب يضحك منه.

وينبغى أن يكون عارفًا بالمنازل والمناهل، داريًا بكل ما يقع عليه عين الملك ويسأل عنه من المياه والأنهار والنبات والأشجار، ومضى ساعات الليل والنهار، عارفًا بالكواكب وانتقالتها، ومنازل القمر وهيئاتها، وأن لا يظهر التعب والكلال، وأن يخفى السعال والعطاس، وليكن متفقد النكتة، ظريفًا فى محادثته، صبورًا على السهر، غير متشاغل بالفكر، حافظًا للأسرار، وما يطلع عليه من الأخبار، معتمدًا على الصيانة، مؤديًا للأمانة، فإذا لاعب الملك بالشطرنج، فلا يظهر فى لعبه التحاذق عليه، فأما فى حال الفروسية ولعب الصولجان، فقد لا يكره الملوك التحاذق عليهم فى الميدان، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

الباب الثالث عشر

فى معرفة ما يكاد به الملوك فى غالب الأحوال

اعلم أن مكائد الأعداء، وغوائل الحساد، وطرق المضار، وأسباب الدواهى كثيرة لا يحيط بطرقها علم البشر، ولا يحصرها معقول ذوى الفكر، فيجب على الملك الاحتراز والتحفظ من كل ما يتصور عمله فى المكايد، ويتصدر فعله من نصب الغوائل، ويعتبر بمن سلفه من أرباب الممالك، وما نصب لهم من المكايد والمهالك، وقد ذكرنا فى الباب السادس فى وصف الحسد من حكاية بهرام وخاقان، وما نصب كل منهما لصاحبه من المكيدة ما فيه اعتبار لذوى البصائر والأفكار، وأكثر ما رأينا يحدث فى غالب الأحوال من أمور نحن ذاكروها إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك السموم القاتلة التى يتلطف بها الأعداء فى الحيلة بوصولها إلى الملوك على يد النسوان والغلمان، وهو يصنع غالبًا فى عشرة أشياء: فى السرج، والسرير، والكرسى، والحلى، والآنية، والطعام، والفاكهة، والثياب، والفراش الذى ينام عليه،

---

(١) الحرون هو: الذى لا ينقاد، إذا اشتد به الجرى وقف. انظر: لسان العرب (١٣/١١٠) (مادة/حرن).

وينبغي للملك أن يكون متيقظًا لذلك، محترسًا منه، وسنذكر من العلامات الواضحة فى هذه الأشياء ما فيه كفاية للفطن، بحيث إذا رآها علم أنه مسموم.

وينبغى للملك أن يتفقد ثيابه كل يوم، وفراشه أيضًا، وغاشيته الذى على سرج الحصان، وكرسيه الذى يجلس عليه، فإن علامة ذلك إن كان مسمومًا أن يظهر فى صفاء ألوانها لمع كالرسخ يضرب إلى سواد من غير وسخ، وهدبها وحواشيها فى نظر العين كأنها بالية، وأما ظاهر السرج والسرير والكرسى إذا كان ملطوخًا بالسم، يكمد لونه، ويعلوه كالغبرة، وأما الحلى والآنية وما يستخرج من معادن الأرض كالذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والحديد، فإن ذلك كله إذا كان مسمومًا يعلوه كالرسخ، وأما أوانى الخزف والفخار، فإنها إن كانت مسمومة، تحدث دسومة وزهومة، وربما أفرط صفاء لونها حتى رؤى فيها بريق ليس من ذاتها، وربما ذهب بريقها الذى هو فى ذاتها.

وأما الطعام المسموم، يستدل عليه من وجهين:

أحدهما: بالنار، فإن الطعام المسموم إذا وضعت منه شيئًا فى النار، لم يصعد دخانه مستطيلاً إلى الهوى، بل يدور على ذلك الطعام، ويسمع له صوت، وأيضًا يكون طرف ما ينبعث من النار كأنه عنق الطاووس، وأيضًا مما يظهر منه إذا احترق رائحة منتنة.

الوجه الثانى: أن يعرض الطعام على الطير والدواب التى هى معدة فى دار الملك لمعرفة الطعام المسموم، فأما الطير، فمنها الغراب، فإنه إذا أكل من الطعام المسموم، انكسر صوته، وأما الصرد والقفاء، فإنهما إذا شما الطعام المسموم، صوتا بأعلى صوتهما، ومنها طائر من جنس الأوز الصينى، يقال له: الهيش، فإنه إذا رأى الطعام المسموم وشم رائحته هرب منه، وجعل يتعثر فى مشيته، ومنها الكركى، فإنه إذا شم رائحة الطعام المسموم أو أكله، فإنه يدور حتى يظن أنه مغشى عليه، ومنها الفواخت والعقق، فإنهما يموتان بأكل الطعام المسموم، وكذلك إذا شما رائحته أيضًا، ومنها الطاووس، فإنه إذا رأى الطعام المسموم تشوف إليه وطفق يأكله ويهواه، ومنها طائر من طيور الماء، أحمر العينين، يقال له: حيوحين، فإنه إذا نظر الطعام المسموم خر إلى الأرض مغشيًا عليه، والذباب إذا سقط على الطعام المسموم مات من ساعته.

وأما الدواب المعدة لذلك، فمنها السنور، فإنه إذا أكل من الطعام المسموم أو شم

رائحته، نفر من موضعه ولم يستقر فيه، ومنها القرد، فإنه إذا قدم إليه الطعام المسموم أيضًا لم يتمالك حتى يهرب منه، ويصعد فى الأشجار والحيطان، فهذا كله يستدل به على الطعام المسموم، فينبغى للخادم المقدم للطعام أن يمتحنه بالنار، ويعرضه على الطير والدواب التى ذكرناها قبل إحضاره بين يدى الملك، وإذا كان الطباخ بصيرًا حاذقًا عرف السم إذا طرح فى القدر بالأمارة الدالة عليه، فإن قدر الأرز إذا وضع فيها السم أبطأ نضجها، وإذا نزلت عن النار انعقد فيها سريعًا، وصلب حبها، ويفور من القدر بخار كلون عنق الطاووس، وقدر المرق إذا وضع فيها السم، فلا يلبث إلا قليلاً حتى تنشف المرقة منها، ويبقى اللحم يابسًا لا مرقة عليه، ومهما بقى منه تغير لونه وكدر.

وأما دليل معرفة السم فى الشراب المسموم، فإن كل شراب حلو إذا طرح فيه السم يظهر فيه خط مستطيل كلون النحاس، ويظهر فى المحيط خطوط من الخضرة والصفرة والسمرة، ويظهر فى ماء العسل خط كلون شعاع الشمس، ويظهر فى الماء والنبيذ خط أسود. وأما معرفة الفواكه المسمومة، فإن ما لم يدرك منها يظهر للعين كأنه مدرك، والتى قد أدركت منها تظهر كأنها لم تدرك لتغييرها وانقباضها، وكل رطب منها تراه كالمهرى، وكل يابس تراه منقبضًا متشجًا، وجميع الفواكه يذهب صفاء لونها، ويعلوه غبرة وكدرة، ويصير اللين منها صلبًا، والصلب منها لينًا.

واعلم أن واضع السم فى بعض هذه الأشياء، أو صانع مكيدة من مكائد الأعداء من النسوان أو الغلمان أو الخدم وغيرهم، لابد أن يظهر عليه من الريبة أمارة لا يخفى فيها على الفطن اللبيب، فينبغى للملك أن يتصفح وجوه خدمه وغلمانه وجواريه ونسائه فى كل وقت، فإن المريب لا يملك نفسه أن يصفر لونه، أو يخضر، أو يبتلع ريقه، ويخفق فؤاده، أو يعض على شفته السفلى، أو يكثر تلفته، وترعد فرائصه، أو يتعثر فى مشيه، أو يكثر تثاؤبه، أو يعرق جبينه، أو يفتل أهداب ثيابه ويعبث بها، أو ينكث الأرض بإبهامه الكبير من رجله، أو ينقطع عما يريد أن يتكلم به، أو يكثر القيام فى العمل الذى يعمله ولم يتمه لغير عذر، فجميع هذه أمارات تدل على الريبة، فليراعها الملك من متولى طعامه وشرابه، ومتولى خزانة ثيابه وفراشه وسروج دوابه، وغيرهم من خدم داره.

وأما الأحوال التى يترصدها أهل المكائد فى الغالب، فمنها: المواضع الضيقة، والجهات المجهولة من الطرقات، فلا ينبغى أن يسلكها حتى يكون أمامه دليل خبير

بذلك الموضع، ويتقدمه فى ذلك جماعة من أعوانه. ومنها: ازدحام الموكب عليه فى المواضع الضيقة، أو فى الأعياد والمحافل، فلا يأمن أن يلج بين خواصه من يريد به شرًا. ومنها: الإمعان فى طلب الصيد والانفراد فيه عن الخاصة وثقاة الأعوان، فلا يأمن أن يدس عليه أهل العداوة ممن يوقع به الفعل، أو يكمن له الأعداء على الخيول السريعة فى المواضع الوعرة، أو يعرض له أحد السباع الضارية عند انفراده. ومنها: الورود على الأنهار، فإن اغتيال المرء صاحبه فى الماء الجارى أسهل منه على ظهور الخيل؛ لأن الماء معين له على هربه، لاسيما إذا كان رجال الملك وراء ظهره، فينبغى أن لا يردها حتى يتقدمه من أعوانه من يخبر شطوطها ومشارعها.

ومنها حالة شدة المطر، وحال شدة الحر، وحال ظلام الليل، فإنه فى هذه الأحوال تقل الحفظة، ويشتغل كل واحد منهم بمصلحة نفسه. ومنها: حال سروره، ولهوه، وطربه فى مجلسه، وسكره، وشرابه، فإن الحفظة أيضًا يسكرون، أو ينامون، فيتمكن منهم المحتال. ومنها: الثقة إلى النسوان والركون إليهن، فإن مكر النسوان وحيلهن أكثر من بساطتهن مع ضعفهن وقلة عقولهن، فلا يأمن مكرهن وغيرتهن وغاراتهن، فقد يقدمن على الأهوال، وما يعجز عنه الرجال، فليراع الملك جميع ما ذكرناه، وما يخطر بباله من أشباه ذلك وأمثاله، مع تسليمه الأمر لله تعالى وقضائه وقدره سبحانه وتعالى.

* * *

الباب الرابع عشر

فيما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبيره

إذا أراد الملك التوجه بجنوده إلى أعدائه، فينبغى له أن ينيلهم فى تدبيرهم وسياسة أمورهم سبعة عشر حقًا؛ ليتم بذلك مصلحتهم، وينتظم به حالهم:

أحدها: استعرافه قبل المسير بهم، فيتفقد خيلهم التى يجاهدون عليها، فلا يدخل عليها كبيرًا ولا صغيرًا؛ لأن ذلك كله وهن فى المجاهدين، فإنما يستعد للأعداء بالقوة، وما تظهر به الهيبة والرهبة. قال الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: «ارتبطوا الخيل، فإن ظهورها لكم عز، وبطونها لكم كنز»، ويتفقد جميع أسلحتهم، وسائر آلاتهم وأمتعتهم، ويأمرهم باتخاذ قويها، واستبدال ضعيفها.

الثانى: أن ترفق فى السير ليقدر عليه ضعيفهم، وتحفظ به قوة قويهم، ولا يجد السير

فيهلك الضعيف، ويستفرغ قوة القوى. قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى»[١].

الثالث: يراعى من معه من المقاتلة، وهم صنفان: مسترزقة، ومتطوعة، فأما المسترزقة، فهم أصحاب الديوان، فيفرض لهم من العطاء من بيت المال من الفىء بحسب الغنى والكفاية، وأما المتطوعة، فهم الخارجون عن الديوان، الذين خرجوا فى النفير، فيعطون من بيت المال من الصدقات دون الفىء من سهم رسول الله ﷺ المذكور فى آية الصدقات.

الرابع: أن يعرف عليهم العرفاء، وينقب عليهم النقباء، فيكون عارفًا بجميع أحوالهم من عرفائهم ونقبائهم، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ.

الخامس: أن يجعل لكل قائد منهم شعارًا يتميز به أصحابه؛ ليصير به عن غيره متميزًا.

السادس: أن يتصفح الجيش عند مسيره، فيخرج منهم من كان به تخذيل للمجاهدين، وإرجاف بالمسلمين، ولو كان غنيًا، فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ، ورد عبد الله بن أبى سلول المنافق فى بعض غزواته لتخذيله للمسلمين.

السابع: أن لا يتعرض عند اللقاء لمن خالفه فى العقيدة والمذهب، أو لمن ظهرت عليه أمارات البغضاء، أو لمن أساء أدبه على الملك، أو من حضر فى خدمته؛ لأن التعرض لهؤلاء فى مثل هذا الوقت يفضى إلى الفراق، وافتراق الكلمة، وحصول الفشل. قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦]، أى دولتكم، وقيل: معناها قولكم[٢] .

---

(١) الصحيح أنه مرسل: أخرجه أبو عبد المقدسى فى الأحاديث المختارة (٦/١٢٠) ح (٢١١٥)، والبيهقى فى الكبرى (٣/١٨) ح (٤٥٢٠)، والإمام أحمد فى مسنده (٣/١٩٨) ح (١٣٠٧٤)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٨٤) ح (١١٤٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣/٤٠٢) ح (٢٨٨٢)، وابن المبارك فى الزهد (١/٤١٥) ح (١١٧٨)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/٨٢١) ح (١٣٧٥)، وانظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢/٢٨٤) ح (٢٣٣٩).

(٢) وروى عن مجاهد إنه النصر، وعزاه الحافظ السيوطى للفريابى، وابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣)، وهو مروى عن قتادة، عزاه الحافظ السيوطى لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣) وهو=

الثامن: حراسة الجيش من غدرة يظفر بها العدو، فينبغي أن ينتقى المكامن ويحفظها عليهم، ويحوط أطرافهم بحرس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم؛ لينتبهوا وقت الدعوة، ويأمنوا وراءهم في وقت المحاربة.

التاسع: أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، فيقصدو أوطأ الأرض مكانًا، وأكثرها مرعى وماء، وأكثرها سعة، وأحرسها أكنافًا وأطرافًا، ويكون الموضع سالمًا من جبل أو شجر، فإن في ذلك كله عونًا لهم على المنازلة، وأقوى لهم على المرابطة.

العاشر: إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد، وعلوفة؛ ليفوق ذلك عليهم في أوقات الحاجة، حتى تسكن نفوسهم إلى مدة تعينهم على الطلب، ليكونوا على الحرص أوفر، وعلى منازلة العدو أقدر.

الحادي عشر: أن يتعرف أخبار عدوه بالجواسيس الثقاة التي تكون له عندهم مكانة، ليكون خبيرًا بأحوالهم، ويسلم من مكرهم، ويلتمس العزم في الهجوم عليهم.

الثاني عشر: ترتيب الجيش في مصافة الجيش، والتعويل في كل جهة على ما يراه كفؤًا لها، ويتفقد الصفوف بنفسه من حصول خلل يقع فيها، ويراعى كل جهة يميل العدو إليها بمدد يكون عونًا لها.

الثالث عشر: أن يحرض المؤمنين على القتال، ويقوى نفوسهم وعزمهم على الظفر، ويذكر لهم أسباب النصرة، ويصغر العدو في أعينهم، ويعدهم الإقطاع والزيادة في الرزق إذا ظهرت منهم النكاية في العدو.

الرابع عشر: أن يذكرهم ثواب الله تعالى، وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم، ويذكرهم الشهادة وفضلها، ويعدهم بإبقاء رزقهم على أولادهم من بعدهم.

الخامس عشر: أن يشاور ذوى الرأى منهم وأهل الخبرة بالقتال، والمشايخ من أعوانه وأهل دولته، ويرجع إليهم فيما أشاروا، ويسلم الأمر إليهم فيما أشكل عليه من الخطأ ليسلم من الزلل.

السادس عشر: أن يلزم بما أوجبه الله تعالى من حقوقه، وبما أمره الله تعالى من

=مروى عن ابن زيد، عزاه الحافظ السيوطى لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣٤٣/٣).

مراعاة حدوده؛ لأنه من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه. وقد قال رسول الله ﷺ: «انهوا جيوشكم عن الفساد، فإنه ما أفسد جيش قط إلا قذف الله تعالى فى قلبه الرعب، وانهوا جيوشكم عن الزنا، فإنه ما زنا جيش إلا سلط الله عليه الموتان».

السابع عشر: أن لا يترك أحدًا من جيشه يشتغل بتجارة، أو زراعة؛ لأن ذلك يذهب الاهتمام من مصابرة العدو، ويضعف الصدق فى الجهاد. وقد روى أن نبيًا من بنى إسرائيل غزا غزوة لهم، فقال: لا يغزون معى رجل بنى بناء لم يكمله، ولا رجل تزوج بامرأة لم يدخل عليها، ولا رجل زرع زرعًا لم يحصده.

وإذا سار الملك بالجيش ودخل أرض العدو، فينبغى أن يكون طلائع جيشه ومقدمته كالنهر الجارى، فإن النهر فى أول جريه يتخلل ما يمر به من الأرض المستوية، فإذا بلغ نشوا من الأرض وقف عنه حتى يقوى بالمدد من ورائه، ثم يعلو ذلك النشو، فكذلك ينبغى أن تكون طلائع الجيش التى تتقدم عليه، لا تقتحم ما ترى بالقوة على العدو الذى أمامها إلا بأن تستمد من ورائها، فإذا أتاها المدد قويت على من تمر عليه، كعلو النهر إذا استمد من ورائه.

ولا ينبغى أن يقدم على مقاتلة الناحية المجهولة حتى يتقدم إليها من يخبرها من طلائعه، فقد كان يقال: لا تطأ أرض عدوك إلا على أقوى احتراس وتوق افتراسه، فإنك لا تأمن أن يكون قد نصب لك فيها الأشراك، ودفن الغوائل والشباك.

* * *

الباب الخامس عشر

فيما ينبغى لأهل الجيش ويلزمهم من حقوق الجهاد

إذا توجه الملك بالجيش إلى قتال المشركين، لزم أهل الجيش من الحقوق أمران: أحدهما: ما يلزمهم من حق الله تعالى. الثانى: ما يلزمهم من حق الملك، فأما ما يلزمهم من حق الله تعالى، فأربعة أشياء:

أحدها: مصابرة العدو عند التقاء الصفين، ولا يهزمون من مثليهم فما دون، فإن الله تعالى فى الأصل فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا﴾ [الأنفال: ٦٥].

وأن الله بعد ذلك خفف عليهم لما شق عليهم الأمر، فأوجب على كل مسلم أن يقاتل رجلين من المشركين، فقال عز وجل: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ثم أن الله حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لأحد أمرين، إما متحرف لقتال، فيأوى للاستراحة أو لمكيدة ويعود إلى قتالهم، وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى ليجتمع بها على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

الثانى: أن يقصد بقتاله نصرة دين الله، وإبطال كلمة من خالفه من الأديان، فيكون عند الاعتقاد حائزًا لثواب الله تعالى، وطيعًا له فى أمره، ولا يقصد بقتاله فائدة تحصل من الغنيمة، فيصير من المكتسبين لا من المجاهدين.

الثالث: أن يؤدى الأمانة فيما حازه من الغنائم، لم يغل منها شيئًا، بل يحمله جميعه إلى المغنم ليقسم بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة؛ لأن لكل واحد منهم فيها حقًا.

الرابع: أن لا يراعى فى نصرة دين الله تعالى ذا قرابة، أو مودة، فإن حب الله تعالى أوجب، ونصرة دينه ألزم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وأما ما يلزم الجيش من حق الملك، فأربعة أشياء:

أحدها: التزام طاعته، والدخول فى ولايته، والقبول لأمره ونهيه ما لم يأمرهم بالمعصية، فإن طاعة الملك واجبة فى غير المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ...﴾ [النساء: ٥٩] الآية. قال ابن عباس، رضى الله عنه: وأولوا الأمر الأمراء[١]. قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد

---

(١) وهو قول أُبيّ، أخرجه ابن جرير، عن ابن زيد، عن أبيّ، عزاه له الحافظ السيوطى. انظر: الدر المنثور (٢/٣١٥).

حبشى»[(١)]، فأما إذا أمر بمعصيــة، فـلا يجـوز طاعتـه؛ لقولـه ﷺ: «لا طاعـة لمخلـوق فـى معصية الخالق»[(٢)].

الثـانى: أن يفوضـوا أمرهـم إلى رأيـه، ويكلـوه إلى تدبيره، حتـى لا يختلـف رأيهـم فتختلف كلمتهم، ويتفرق جمعهم، فإن ظهر لهم صواب فـى شـىء خفـى علـى الملـك، فينبغى أن يبينوه له سرًا ليرجع به إلى الصواب.

الثالث: المسارعة إلى امتثال أمره ونهيه فى غير المعصية.

الرابع: أن لا يتنازعوه فى شىء من قسمة الغنائم إذا قسمها فيهم، بل يرضوا بـه فـى القسمة، فإنه يساوى بينهم، ولا يأبى أن يعدل بين القوى والضعيف، ويماثل بـين الدنـئ والشريف، وسنذكر القسمة فى بابها.

* * *

الباب السادس عشر
فى مصابرة المشركين

إذا تقاتل فريق المؤمنين وفريق المشركين، وجب على الملك مصابرتهم ما صبروا، وإن طالت بهم المدة، ولا يولى عنهم وبه قوة، فقد قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُـواْ اللّـهَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ**﴾ [آل عمـران: ٢٠٠]، فقـال

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (ح٦٦١)، وابـن حبـان فـى صحيحـه (٣٠٢/١٣) ح (٥٩٦٤)، والحاكم فى المستدرك (١٧٤/١) ح (٣٢٩)، وأبو عبـد الله المقدسـى فـى الأحـاديث المختـارة (٧٣/٢) ح (٤٥٠)، وأبو عوانة فى مسـنده (٢٥٧/٥) ح (٧١٠٣)، والترمذى (٢٠٩/٤) ح (١٧٠٦)، والبيهقى فى الكبرى (١٨٥/٨) ح (١٦٣٧٧)، والنسـائى (١٥٤/٧) ح (٤١٩٢)، وابـن ماجـه (٩٥٥/٢) ح (٢٨٦٠)، وابـن أبـى شـيبة فـى مصنفـه (٤١٨/٦) ح (٣٢٥٣٧)، وإسـحاق بـن راهويـة فـى مسـنده (٢٤٢/١)، والطـبرانى فــى الأوسـط (٣٥٣/٢، ٣٥٤) ح (٣٥٢١) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة، عن الحسن، عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، هكذا مرسلاً (٥٤٦/٦) ح (٣٣٧١٧). وبلفظ: «لا طاعـة فـى معصية، إنما الطاعـة فـى المعـروف»، أخرجـه البخـارى (٦٨٣٠)، وأبـو عوانـة (٧١١٢)، وبلفـظ: «لا طاعـة لمـن عصـى اللـه»، أخرجـه الحـاكم فـى المستدرك (٤٠١/٣) ح (٥٥٢٨)، وقال: صحيح الإسناد، لم يخرجاه.

الحسن: معناه اصبروا على طاعة الله، وصابروا أعداء الله، ورابطوا فى سبيل الله[(١)].

وينبغى للملك أن يرتب جيشه، ويجعل لكل طبقة من أعدائه أشباههم من جيشه، فإنهم كالماء فى الأذن إذا دخلها، فلا حيلة أرفق فى إخراجه من الماء الذى هو من جنسه، وإذا حمل على أعدائه، فليكن كالنهر إذا جرى لا انثناء له ولا رجعة حتى يبلغ غايته ومنتهاه من مفيضه.

وكذلك ينبغى أن يشد الملك فى حملته حتى ينال من عدوه، ويبلغ غايته، وإذا عاد أحد من المشركين إلى البراز، جاز للمسلم أن يخرج إليه؛ لأن ابن أبى خلف دعا رسول الله ﷺ فى يوم أُحُد للبراز، فبرز إليه فقتله، وفى يوم بدر ثلاثة مشركون، وهم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وأخوه شيبة بن ربيعة، ودعوا إلى البراز، فبرز إليهم من الأنصار عود، ومعاذ بن عفراء، وعبد الله بن رواحة، فقالوا: إنا لا نعرفكم، فليبرز إلينا أكفاؤنا من قريش، فبرز إليهم ثلاثة من بنى هاشم، وهم: على بن أبى طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة، فأما على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فبرز إلى الوليد فقتله، وبرز حمزة إلى عتبة فقتله، وبرز عبيدة إلى شيبة، فاختلفا ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه، فمات شيبة لوقته، وحمل عبيدة حيًا، فمات بعد ذلك.

وروى أن عمرو بن عبد ود العامرى دعا إلى البراز فى اليوم التالى، فلم يجبه أحد، ثم دعا فى اليوم الثالث، فلم يجبه أحد، فقال: يا محمد، ألستم تزعمون أن قتلاكم فى الجنة عند ربهم يرزقون، وقتلانا فى النار يعذبون؟ فلماذا يبالى أحدكم أن يقدم على كرامة ربه، ويقدم عدوه إلى النار؟ ثم أنشد شعرًا:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز
إنى لذلك لم أزل متسرعًا نحو الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

قال: فقام إليه على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فاستأذن رسول الله ﷺ فى مبارزته، فأذن له بعد معاودة، وقال: «اخرج إليه فى حفظ الله وعنايته»، فخرج على،

---

(١) وعن الحسن: اصبروا عند المصيبة، وصابروا على الصلوات، ورابطوا: جاهدوا فى سبيل الله. عزاه الحافظ السيوطى لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. انظر: الدر المنثور (٢/٢٠٢).

رضى الله عنه، وهو ينشد هذه الأبيات:

أبشـــر أتـــاك مجيـــب صوتـــك فـــى الهزاهـــز غـــير عـــاجز
ذو نيـــــة وبصيـــــرة يرجـــو الغـــداة نجـــاة فـــائز
إنـــى لأرجـــو أن أقيـــم عليـــك نائحـــة الجنـــائز
مـــن طعنـــة نجـــلاء يبـــقى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

قال: فتجاولا ساعة، ثم حمل كل منهما على صاحبه، وثارت بينهما عجاجة أخفتهما عن الأبصار، ثم انجلت عنهما وإذا علىّ، رضى الله عنه، وهو يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل.

وإذا أراد المسلم أن يدعو إلى البراز مبتدئًا، جاز له ذلك؛ لأن جماعة من الصحابة، رضى الله عنهم، فعلوا ذلك. وقد روى أبو هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ سُئل عن المبارزة بين الصفين، فقال: «لا بأس»، وينبغى أن لا يبارز إلا من اشتهرت قوته، وعلمت شجاعته؛ لأن الضعيف إذا بارز لا يأمن أن يقتل، فتضعف قلوب المسلمين.

ويجوز لأحد الجيش أن يحمل منفردًا على جيش المشركين، وقد كان يفعل ذلك جماعة من الصحابة، رضى الله عنهم. وروى أن الخنساء بنت عمر بن الشريد السلمية حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة، فقالت لهم من أول الليل: يا بنى، أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنتم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى من الثواب للمسلمين فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظاها عن بساقها، فيمموا فى طلبها، وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم، أو الكرامة فى دار الخلد والمقامة، قال: فخرج بنوها من عندها قابلين لنصحها، فلما كان الصبح باكروا مراكبهم، فحين تقابل الصفان حمل أحدهما على جيش المشركين وهو ينشد:

يـا إخوتـى إن العجـوز الناصحـه قـد نصحتنـا إذ دعتنـا البارحـه

حالـة ذات بيـان واضحـه ... فبادروا الحرب العروس الكالحه
فأنتـم بـين حياة صالحه ... أو ميتـة تـورث غنما رابحه

فلم يزل يضرب فيهم بسيفه، ويطعنهم برمحه، حتى استشهد، رحمه الله تعالى، ثم حمل الثانى، وهو ينشد:

قـد أمرتنـا بالسداد والرشـد ... نصيحـة منهـا وبـرا بـالولد
فبـاكروا الحرب حماة فى العـدد ... إمـا لفـوز بـارد علـى الكبـد
أو ميتـة تورثكـم غنم الأبـد ... فى جنة الفردوس والعيش الرغـد

فلم يزل يضرب بهم بسيفه، ويطعنهم برمحه، حتى استشهد، رحمة الله تعالى عليه، ثم حمل الثالث، وهو ينشد:

لست فتـى الخنسـا ولا ابـن الأكـرم ... وأعنـى عمـرو إذا السماح الأقـدم
إن لم أذد فى الحرب جيش الأعجم ... إمـا لفـوز عـاجل أو مغنـم
أو لحيـاة الديـن أفـدى بدمـى ... أو لوفـاة فـى سبيـل الأقـوم

فلم يزل يطعن فيهم برمحه، ثم استشهد، رحمه الله، فلما بلغ خنساء الخبر، قالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى أنا وإياهم فى مستقر رحمته، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: اعطوا الخنساء أرزاق أولادها، وأجروا عليها ذلك حتى تقبض، فلم تزل تأخذ عن كل واحد منهم مائتى درهم حتى قبضت، رضى الله عنها، وينبغى أن يكون سواد العسكر وجمهور الموكب ممتدًا كامتداد النهر إذا طمى وزخر لا يمر بشىء إلا علاه وغرقه.

* * *

الباب السابع عشر

فى معرفة قتال أهل الردة، وأهل البغى، وقطاع الطريق

نقتصر فى هذا الباب على ذكر ما يجوز للملك فعله، ونوضح قواعد المذهب فى ذلك، من غير ذكر خلاف ولا تطويل؛ ليقع الفعل فى ممارستهم موافقًا للشرع، وهو ثلاثة فصول:

الفصل الأول فى معرفة قتال أهل الردة

إذا حكم بإسلام قوم، ثم ارتدوا عن دين الإسلام إلى أى دين خالفه، لم يجز إقرارهم عليه؛ لأن الإقرار بالحكم يوجب التزام أحكامه، ثم لا يخلو حال أهل الردة من أمرين، أحدهما: أن يكونوا فى دار الإسلام أفرادًا لم يتحيزوا بدار يمتنعون بها عنه، ويتميزون عن المسلمين فيها. الثانى: أن ينحازوا إلى دار ينفردون بها عن المسلمين، حتى يصيروا فيها ممتنعين، فإن كانوا فى دار الإسلام منفردين، فلا حاجة لقتالهم، لدخولهم تحت القدرة، بل يجب أن يأخذهم بالتوبة مما دخلوا فيه من الباطل، فإن تابوا قبلت توبتهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومن أقام منهم على ردته وجب قتله، رجلاً كان أو امرأة؛ لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(١).

واختلف العلماء فى كيفية قتل المرتد، والوقت الذى يقتل فيه، فمنهم من قال: يقتل فى الحال؛ لأن حق الله تعالى إذا وجب لا يجوز تأخيره. ومنهم من قال: يؤجل ثلاثة أيام؛ لأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، نظر المستورد العجلى بالردة ثلاثة أيام، ثم قتله بعد ذلك(٢)، ويقتل ضربًا بالخشب، وإذا قتل لم يغسل، ولم يكفن، ولم يصل عليه، ولا يدفن فى مقابر المسلمين، ويكون ماله فيئًا إلى بيت مال المسلمين.

وأما إذا انحاز أهل الردة إلى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا فيها ممتنعين، وجب قتالهم على ردتهم، ويجرى على قتالهم حكم قتال أهل الحرب فى جواز قتلهم غرة وبياتًا، ومقبلين ومدبرين، ومن أسر منهم جاز قتله، ولا يجوز استرقاقه، وإذا أغنمت أموالهم لم تقسم بين الغانمين، بل يكون مال من قتل منهم فيئًا لبيت المال، ومال من لا يقتل موقوفًا على إسلامه إن عاد إلى الإسلام رد عليه ماله.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٣٤/٦) ح (٨٦٢٣)، وفيه ابن لهيعة، وحسن الحافظ الهيثمى إسناده. انظر: مجمع الزوائد (٢٦٤/٦).

(٢) اعلم أنهم اختلفوا فى وجوب الاستتابة، فذهب إلى استحبابها الإمام مالك، وأحمد، وأبو حنيفة، وهو قول الشافعى. والثانى وجوب الاستتابة. وقال عطاء: إن كان مسلمًا فى الأصل، لم يستتب، وإن كان قد أسلم ثم ارتد استتيب. وقال الحسن البصرى: يقتل من غير استتابة. وفى مدة الاستتابة قولان عندنا نحن الشافعية، أصحهما: أنه يستتاب فى الحال. والثانى: يستتاب ثلاثة أيام. وروى عن الخليفة على، عليه السلام، أنه قال: يستتاب شهرًا. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٠١/٣).

الفصل الثانى فى معرفة قتال أهل البغى

وإذا خرجت طائفة من المسلمين، وخالفوا رأى الجماعة، وانفردوا عنهم، وخرجوا عن قبضة الإمام الأعظم، وتحيزوا وامتنعوا بمنعة، وجب قتالهم بعد أن ينذرهم ويسألهم ما ينقمون؛ لأن على، رضى الله عنه، بعث عبد الله بن العباس إلى الخوارج، فسألهم ما ينقمون منه، ثم يؤخرهم وينظرهم، فإن رجعوا إلى الطاعة كف عنهم، وإن أبوا قاتلهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الحجرات: ٩]، وقاتل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة، وقاتل على، رضى الله عنه، الخوارج بالهذوان، وقاتل معاوية بصفين[١].

واعلم أن قتالهم يخالف قتال المشركين من تسعة أوجه:

أحدها: لا يهجم عليهم غرة ولا بياتًا[٢]، ويجوز ذلك فى قتال المشركين.

الثانى: أن يقصد بقتلهم ردهم وردعهم ورجوعهم إلى الحق، ولا يعتمد إلى قتلهم.

الثالث: يقاتلهم مقبلين، ويكف عنهم مدبرين[٣].

الرابع: أن لا يجهز على جريحهم.

الخامس: أن لا يقتل أسراهم[٤].

السادس: أن لا نغنم أموالهم، ولا نسبى ذراريهم[٥].

---

(١) وفيه اعتبار معاوية من البغاة، لقول النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»، فظهر أن هذا قول ابن بسام.

(٢) هذا مذهبنا نحن الشافعية والكاسانى من الأحناف، والمرغينانى، خلافًا للقدورى ومن وافقه، كالطرسوسى من الأحناف. انظر: تحفة الترك للطوسوسى (ص٦٨).

(٣) هذا مذهبنا نحن الشافعية، خلافًا للإمام الأعظم، حيث قال: يتبعون ويقتلون، واختاره أبو إسحاق، حيث كانت لهم فئة ينحازون إليها، وإلا فكمذهبنا. انظر: حلية العلماء للشاشى (١٠٩٩/٣)، تحفة الترك للطرسوسى (ص٦٨، ٦٩)، بدائع الصنائع للكاسانى (١٤٠/٧، ١٤١).

(٤) وعند الأحناف يقتل الأسرى إن كانت لهم فئة يتحيزون إليها، وإن لم تكن، فالإمام مخير، إن شاء قتله استئصالاً لشأفتهم، وإن شاء حبسه لاندفاع شره بالسر والحبس. انظر: الهداية للمرغينانى (٤٦٥/٢)، تحفة الترك للطرسوسى (ص٦٩).

(٥) ولا تتملك أموالهم لبقاء العصمة فيها بكونها محررة بدار الإسلام. انظر: تحفة الترك للطرسوسى (ص٧١).

السابع: أن لا يستعين على قتالهم بمشرك معاهد ولا ذمى.

الثامن: أن لا يهادنهم إلى مدة، ولا يوادعهم على مال، فإن هادنهم إلى مدة لم يلزم، فإن ضعف عن قتالهم انتظر بهم القوة عليهم، وإن وادعهم على مال بطلت الموادعة، ثم ينظر فى المال، فإن كان من صدقاتهم وخراجهم، لم يرده عليهم، وإن كان من خالص الأموال رد اليهم، ولا يجوز أن يتملكه عليهم.

التاسع: أن لا ينصب عليهم العربات والمنجنيقات، ولا يحرق عليهم المساكن، ولا يقطع أشجارهم؛ لأن دار الإسلام تمنع من كل ذلك، بخلاف قتال المشركين، فإن أحاطوا بأهل العدوان، وخافوا منهم الاصطلام، جاز أن يدفعوا عنهم ما استطاعوا من قتل، ونصب المنجنيقات عليهم، وحرقهم بالنار وغير ذلك؛ لأن المسلم إذا أصابه ضرر، بحيث لا يندفع إلا بقتل من قصده، جاز له الدفع بالقتل، ولا يجوز أن ينتفع بدوابهم، ولا أسلحتهم، ولا يستعان بها فى قتالهم(١)، وقال أبو حنيفة، رحمه الله: يجوز ذلك(٢).

الفصل الثالث فى معرفة قطاع الطريق

فإن اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر السلاح، وقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل النفوس، ومنع السبيل، فهم المحاربون الذين قال الله تعالى فى حقهم: **﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾** [المائدة: ٣٣]، قال الشافعى، رضى الله عنه: من قتل منهم وأخذ المال، قتل وصلب بعد قتله، ومن قتل ولم يأخذ المال، قتل ولم يصلب، ومن أخذ المال ولم يقتل، قطعت يده ورجله من خلاف(٣)، ومن لم يقتل ولم يأخذ المال، ولكنه أرهب وأخاف السبيل، عذر

---

(١) لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»، إلا لضرورة كما إذا خيف انهزام العدل، ولم يجدوا غير خيولهم، فيجوز لهم ركوبها، وكذا إن لم يجدوا ما يدفعون به عنهم غير سلاحهم. انظر: مغنى المحتاج (١٢٧/٤)، المهذب للشيرازى (٢٢٠/٢).

(٢) وقيده الشيخ المرغينانى بالحاجة إليه. انظر: الهداية (٤٦٥/٢). قال الشيخ الطرسوسى: لنا أن الخليفة على، عليه السلام، قسم السلاح فيما بين أصحابه بالبصرة، وكانت قسمته للحاجة لا للتمليك. انظر: تحفة الترك (ص٧١).

قلت: فالظاهر موافقة مذهب الأحناف لمذهب الشافعية، لتقييد كل الجواز بالحاجة.

(٣) انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

بالحبس[1]، وهو النفى من الأرض[2]. وقال مالك، رضى الله عنه: من كان ذا رأى وتدبير قتل، ومن كان ذا بطش وقوة عزّرَ وحبس.

واعلم أن قتال قطاع الطريق كقتال أهل البغى فى عامة أحوالهم، ويخالفه فى خمسة أوجه:

أحدها: يجوز قتالهم مدبرين ومقبلين، بخلاف قتال أهل البغى.

الثانى: يجوز أن يعمد إلى قتل من قتل منهم فى حال الحرب، بخلاف قتال أهل البغى.

الثالث: أنهم يؤخذون بما استهلكوه من دم أو مال فى الحرب وغيرها، بخلاف أهل البغى.

الرابع: أن يجوز حبس من أسر منهم؛ ليعلم براءة حالهم من غير خلاف، بخلاف أهل البغى.

الخامس: أن ما جَبَوْهُ من الخراج والصدقات، يكون كالمأخوذ من وجه الغصب والنهب، لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات، ويكون غرمه مستحقًا عليهم لمن أخذوه منهم، بخلاف أهل البغى.

* * *

الباب الثامن عشر

فى معرفة قسمة الغنيمة والأثقال

إذا أخذ المسلمون من الكفار مالاً بزحف الخيل والركاب، فهو غنيمة يجب على الملِكِ أن يقسمها ما بين الغانمين، فتجعل خمسة أخماس، خمس منها لأهل الخمس الذين قال الله عز وجل فى حقهم: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الأنفال: ٤١]، وأربعة أخماس للغانمين.

---

(١) هذا أحد وجهين فى الحادى، والثانى: يعزره بما يراه. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

(٢) أى أنه يحبس فى غير بلده، وهو قول أبى العباس بن سريج، والثانى: يحبس فى بلده، وهو قول أبى حنيفة. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

وينبغى أن يقسم ذلك كله فى دار الحرب؛ لأن رسول الله ﷺ قسم غنائم بنى المصطلق على مياههم، وقسم غنائم حنين بأوطاس، هو واد من حنين، ولا يدخل سلب المقتول فى القسم، بل يكون للقاتل دون غيره؛ لأن رسول الله ﷺ جعل السلب للقاتل[١]، فإن كان الجيش كلهم فرسانًا، سوى بينهم فى القسمة، وكذلك إذا كانوا رجالة، وإن كان بعضهم رجالة، وبعضهم فرسانًا، جعل للرجل سهمًا واحدًا، وللفارس ثلاثة أسهم، سهم للرجل، وسهمان للفرس[٢]، ويجعل من قاتل ومن لم يقتل سواء فى القسمة، وكذلك من حضر بفرسين أو أكثر، لم يزد سهمه على من حضر بفرس واحد.

وإذا بعث الملك سرية من الجيش إلى جهة الكفار فغنمت السرية، شاركها فى ذلك أهل الجيش، وكذلك إن عمل أهل الجيش، شاركهم أهل السرية؛ لأن رسول الله ﷺ لما هزم هوازن بحنين، أسرى سرية قبل أوطاس فغنمت، فقسم غنائمها بين الجميع، ومن فعل من أهل الجيش فعلاً يفضى إلى الظفر بالعدو، كالتجسس، والدلالة على طريق أو قلعة، أو التقدم بالدخول إلى دار الحرب، جاز للملك أن ينفله من الغنيمة زيادة على سهمه؛ لأن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك.

* * *

الباب التاسع عشر
فيما ينبغى للملك أن يفعله عند قفوله بالجيش

ينبغى للملك إذا قفل بالجيش من غزوة أو سفر، أن يفعل كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى قفوله من غزواته وأسفاره، فقد كان يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى دائم لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده[٣]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾» [القصص: ٨٨].

---

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦/٢٦)، وأبو داود (٢٧٢١)، وانظر: إرواء الغليل (١٢٢٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٦٢)، وأبو داود (٢٧٣٣).

(٣) أخرجه البخارى (١٧٠٣)، وابن حبان فى صحيحه (٦/٤٢٤) ح (٢٧٠٧)، والبيهقى فى الكبرى (٥/٢٥٩) ح (١٠١٤٤)، والربيع فى مسنده (١/١٦٢) ح (٤٠٠)، والإمام مالك فى الموطأ (١/٤٢١) ح (٩٤٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٦٣) ح (٥٢٩٥).

وينبغى إذا أشرف على مدينة أن يحرك دابته ويقول: اللهم اجعل لنا بها قرارًا ورزقًا حسنًا، ثم يرسل إلى نوابه وأهل مدينته، فيخبرهم بقدومه ليخرجوا إلى لقائه؛ لأن الرعية ينتعشون بطلعة الملك عليهم ورجوعه إليهم، كانتعاش النبات بوابل المطر، وإذا دخل البلد فليقصد المسجد ويصلى فيه ركعتين، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ، وإذا دخل منزله واستقر على سريره، رفع حجابه، وفتح بابه، وأذن لوجهاء بلدته وبياض رعيته بالدخول لتهنئته بما أفاء الله عليه، وحققه لديه من شمول النعمة، وحسن المنقلب، ثم يكثر من الصدقات والصلاة، ويوسع فى العطايا والهبات، ويرد المغصوب والمظلومات، ويكشف عن أحوال من حبسه من أهل الخطيئات، ويستكثر من صنائع المعروف وأفعال البر، فإنه إذا فعل ذلك كان شاكرًا لله، وكان لمزيد النعمة مستحقًّا، ولتتابع الإحسان من الله مستوجبًا.

* * *

الباب العشرون

فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك

اعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم، ربما شغلتهم عن أمر الآخرة، وأغفلتهم عن مهمات الدين، فيجنحون إلى اللذات، ويهملون أمر الديانات؛ لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف، وإيثار التنعم، وكراهة التكليف، فلا ينبغى أن تخلو مجالسهم من علماء الدين، وصلحاء المسلمين؛ لينبئوهم عند طروّ الغفلة، ويذكروهم عند حرارة الشهوة، ويوضحوا لهم نهج الآخرة، ومعالم الشريعة.

وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين أن يدعوا إلى مجالسهم الحكماء، ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء، وكانوا فى ذلك ثلاث طبقات، فمنهم طبقة لما سمعوا الوعظ نبذوا ملك الدنيا الذى يفنى؛ ليعتاضوا عنه ملك الآخرة الذى يبقى، وأخرجوا ذلك من قلوبهم وأيديهم، واهتموا بأمر الآخرة والعمل بها؛ لينالوا الفوز الأكبر، والنعيم الدائم.

ومنهم طبقة عند سماع المواعظ أخرجوا ملك الدنيا من قلوبهم، ولم يخرجوه من

أيديهم، واهتموا بأمر الآخرة مع بقائهم فى الملك، وهذه الطبقة مجاهدتهم عظيمة، ومثلهم فى ذلك مثل من ألزم نفسه الظمأ وأمامه نهر بارد ينظر إليه ويقدر على تناوله، وهذا كان مقام الخلفاء الراشدين، وأمرائهم، وعمالهم، ومناسك سبيلهم.

ومنهم طبقة أصمهم حب الدنيا ونيل لذاتها عن استماع المواعظ، وأعمى أبصارهم عن كل مذكر وواعظ، فآثروا اللذات عن المهمات، وقطعتهم الشهوات عن أمور الديانات، وسأذكر من أخبار أهل هذه الطبقات الثلاث ما يكون فيه رياض لذوى الأفكار، ورياضات لذوى الأبصار، والله أعلم بالصواب.

وهذه حكايات عظيمة
الطبقة الأولى خمس روضات

الروضة الأولى: ماحكاه أصحاب الحديث، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، استعمل عمير بن سعيد الأنصارى، رضى الله عنه، على حمص وأعمالها، فلبث فيها سنة كاملة، فجلس يومًا وعنده رجل من أصحاب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان قد أتاه يستدعى منه ما اجتمع عنده من المال، فحضر عنده رجل معاهد، فجعل يتكلم ويرفع صوته، فقال له عمير: اسكت أخزاك الله، فقال له الرجل الذى عنده: أخزاك الله من أصحاب عمر يا عمير، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا ولى خصم المعاهد واليتيم، ومن خاصمه خاصمته»، يا عمير اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب أن يفعل الله بك فاصنع برعيتك.

قال: فبكى عمير بكاء شديدًا، ثم انثنى إلى منزله، فعمد إلى جراب زاده ومزادته وقصعته، فعلقهن على عصاه، وعلقهن على عاتقه، وخرج من حمص ماشيًا حتى قدم على عمر، رضى الله عنه، فسلم عليه، فرد عليه السلام متثاقلاً، ثم قال له: يا عمير، ما الذى أدى بك من سوء الحال؟ أمرضت بعدى أم بلادك بلاد سوء أم هذه خديعة منك؟ فقال عمير: يا أمير المؤمنين، ألم ينهك الله عز وجل عن التجسس؟ ثم ما الذى ترى من سوء الحال؟ ألست ترانى صحيح البدن، قد جئتك أحمل الدنيا؟ فقال له عمر: وما الذى جئت به من الدنيا، فقال: جرابى فيه زادى، ومزادتى فيها ماء لشرابى ووضوئى، وقصعتى لعجينى، وعكازى أذب به عن نفسى، قال: صدقت رحمك الله، فما فعل المسلمون بعدى؟ قال: تركتهم يوحدون الله ويصلون، ولا تسألنى عما وراء ذلك.

قال: فما فعل أهل الذمة؟ قال: أخذنا منهم الجزية وهم صاغرون عن يد، قال: فما زاد من المال؟ وما أنت وذاك؟ قال: إنى لما قدمت حمص اجتهدت برأيى، وجمعت من بها من المسلمين، فاخترت منهم رجالاً فاستعملتهم، ثم نظرت فيما اجتمع من المال فقسمته فى أهله، ولو كان عندنا أكثر لآتاك، فقال: يا عمير، وأين راحلتك؟ قال: لم يكن لى راحلة، قال: أما كان فى رعيتك من يتبرع لك بدابة تركبها؟ بئس المسلمون وبئس المعاهدون.

ثم قال لابنه عبد الله: جئنى بصحيفة لأجدد لعمير عهدًا؛ ليرجع إلى عمله، فقال عمير: لا والله لا أعمل على شيء أبدًا، فقال عمر: ولم ذلك؟ قال: إنى ما نجوت، فإنى قلت يومًا لمعاهد: أخزاك الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا ولى خصم المعاهد واليتيم، ومن خاصمه خاصمته»، فنهض عمر وأخذ بيد عمير، ثم أتى قبر رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا أبا بكر، ثم بكى عمر، وقال: ماذا لقيت بعدكما، اللهم ألحقنى بصاحبى لم أغير ولم أبدل، وبكى معه عمير طويلاً، ثم قال: يا عمير، الحق بأهلك، وكان أهله على ثلاثة فراسخ من المدينة.

قال: ثم قدم بعد ذلك مال على عمر من عند بعض عماله، فدعا رجلاً من أصحابه اسمه حبيب، فدفع إليه صرة فيها مائة دينار، وقال: انطلق إلى منزل عمير، فأقم عنده ثلاثًا وتفقد حاله، ثم اعطه هذه الصرة، فأتاه حبيب، فوجده فى فيء بفناء داره يتقلى فى الشمس، فسلم عليه، فقال له عمير: من أين أقبلت؟ قال: من المدينة، قال: كيف تركت عمر؟ قال: جائرًا فى الحكم، قال: لا، فلعله وضع السوط فى أهل القبلة، قال: لا، ولكنه ضرب ابنًا له الحد فمات، فقال: اللهم اغفر لعمر، فإنه يحبك ويحب رسولك ويحب إقامة الحد.

ثم أقام عنده حبيب ثلاثة أيام يقريه كل يوم قرصًا مأدومًا بزيت، فلما انقضت الثلاثة أيام، قال له عمير: ارتحل عنا رحمك الله، فقد أجعتنا، وإنك لم تصادف عندنا فضلاً، لكنا آثرناك، فقال له حبيب: خذ هذه الصرة، فإن عمر بعثها اليك، فلما صارت فى يده، قال: صحبت رسول الله ﷺ، فلم أبتل بشيء من الدنيا، وصحبت أبا بكر كذلك، ثم صحبت عمر، فشر أيامى يوم صحبت عمر، وبكى، فقالت له امرأته: لا تبك رحمك الله، ضعها حيث شئت، قال: صدقت، فاطرحى لى بعض خلقانك، قال: ففعلت،

فجعل يصر الدينار والدينارين والثلاثة دنانير والأربعة، وفرق ذلك حتى قسمها فى فقراء جيرانه.

وعاد حبيب إلى عمر، فأخبره بخبره، فارتاع لذلك، ولبث أيامًا، واستدعى عميرًا، وقال له: ما صنعت بالدنانير؟ فقال: أقرضتها ربى إلى يوم فقرى، قال: هل عليك دين؟ قال: لا، فأمر عمر، رضى الله عنه، له بوقر بعير تمرًا وبثوبين، فقال: أما الثوبان فأقبلهما، وأما التمر فلا حاجة لى به، فإنى قد تركت عند أهلى صاعًا من الشعير، وهو مبلغهم إلىَّ، ثم انصرف عمير إلى أهله، فقيل: ما لبث قليلاً وتوفى رحمة الله تعالى عليه، فجزع له عمر، وقال لأصحابه: تمنوا، فتمنوا، فقال: لكنى أتمنى رجالاً أستعين بهم على أمور المسلمين.

الروضة الثانية: ما حكاه الأصمعى، قال: ركب النعمان بن امرء القيس ابن عمر الأكبر، حتى أشرف على الخرنوق، وهو الذى بناه، فلما نظر إلى ما حواليه، وكان فى فصل الربيع ورونقه، وقد أخذت الأرض زينتها، فسرح طرفه مليًا فيما حوله، وكان معجبًا بالشقائق التى يقال لها: شقائق النعمان، ومن أجل إعجابه بها وتتبعه لها فى الرياض نسبت إليه.

قال: وكان هناك روضة شقائق، فلما تأملها، ونظر حسن نضد الشقيق فى منابته، وقنو حمرته، وخضرة سوقه، وتمايسه مع هبوب النسيم عليه، ارتاح قلبه إليه، فأمر أن يبسط له بساط منسوج من الحرير المخمل على هيئة الروضة، فكان كأنه روضة مختلفة بأنواع النوار، وضرب عليه قبة من الديباج الأحمر منضودة من الحشايا بما يضاهيها ويجانسها فى لونها، ولبس من الثياب الحرير أفضل وأفخر ما عنده، ثم جلس فى تلك القبة مواجهًا لتلك الروضة، وعنده أكابر قواده، وخواص مملكته، ووجهاء رعيته، وفيهم عدى بن زيد.

قال: فأعجب الملك بما هو فيه، فقال لجلسائه: هل رأيتم مثل ما أنا فيه، أو علمتم أن أحدًا أوتى مثل ما أوتيت؟ قالوا: لا أيها الملك، ما رأينا مثلك، وعدى لم ينطق، فنظر إليه الملك مستدعيًا لكلامه، فقال: أيها الملك، أرأيت ما جمعت أشىء هو لك لم يزل، أو شىء كان لمن قبلك وزال عنهم وصار لك؟ قال: بلى كان لمن كان قبلى ثم صار إلىَّ، قال: فيزول عنك إلى غيرك أم يبقى؟ قال: يزول عنى ويبقى إلى غيرى، قال: فأراك

أيها الملك مررت بشيء يذهب عنك إلى غيرك وتبقى تبعته، تكتال منه قليلاً، وتوهن فيه طويلاً.

قال: فبكى النعمان، وقال له: يا عدى، فأين المهرب؟ قال: أحد أمرين، الأول: أن تقيم فى ملكك تعمل بطاعة ربك على ما أمرك وأرشدك، والثانى: أن تضع تاجك، وتخلع أطمارك، وتلبس مسوحًا، ثم تلحق ببعض الجبال وحدك تعبد فيه ربك حتى يأتيك اليقين، قال: فإذا فعلت ذلك، فما لى عنده؟ أحياة لا موت بها، وشباب لا هرام بعده، وصحة لا سقم بها، وملك جديد لا يبلى؟ قال: نعم، قال: وكلما أراه إلى فناء وزوال؟ قال: نعم، قال: فأى خير فيما ينفى ويزول؟.

ثم أنه ركب هو ومن معه من موضعه، وسار طالبًا قصره، وإلى جانبه عدى بن زيد، فأتوا إلى مقبرة، فقال عدى: أتدرى ما تقول هذه المقبرة أيها الملك؟ قال: لا، قال: إنها تقول: أيها الركب اللاهون على الأرض المجدون، كما كنتم كنا، وكما نحن تصيرون، قال: ثم ساروا، فمروا بحمامات متناوحات عند عين جارية، فقال عدى: أيها الملك، أتدرى ما تقول هذه الحمائم؟ قال: لا، قال: تقول:

من رآنا فليحدث نفسه ... أنه سوف على قرب زوال
وصروف الدهر لا تبقى له ... ولما يأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا دهرا بعيش حسن ... غرهم دهر بهم غير عجال
بعد هذا عبث الدهر بهم ... ولذاك الدهر حال بعد حال

فلما انتهى الملك إلى قصره، التفت إلى عدى، وقال: قد علمت أن المقبرة والحمائم لا تتكلم، وإنما قصدت بذلك عظتى، وقد حصلت الموعظة، فإذا كان السحر فاحضر عندى، فإن عندى خبرًا سأطلعك عليه، فلما حضر عنده وجده قد لبس مسوح الشعر، وأخذ أهبة السياحة، فودع عديًا، ثم ارتقى إلى الجبل، فلم يزل هنالك يعبد الله حتى لحق به، رحمه الله.

الروضة الثالثة: روى نافع، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان فيما سلف ملك دان له الناس، فأعجب بملكه، وقال لوزرائه وقهارمته: ابنوا لى دارًا لا يكون فيها عيب، ففعلوا ذلك، قال: اتخذوا لى طعامًا لا يكون فيه عيب، ففعلوا ذلك، فأمر أن يدعى الناس إلى طعامه فى تلك الدار، ثم أمر بإقامة رجلين بالباب، وأمرهما أن يسألا كل واحد يخرج من الدار: هل رأى فيها عيبًا أو فى الطعام؟.

قال: فمر بهما رجلان عليهما ثياب الشعر فسألاهما، فقالا: نعم رأينا فى الدار عيبين قبيحين، قالوا: وما هما؟ قالا: رأينا الدار تخرب، وصاحبها يموت، فمضيا وأخبرا الملك بما قالا، فأحضرهما وسألهما، فذكرا له ذلك، فأطرق الملك ساعة، ثم قال لهما: أتعرفان دارًا لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ قالا: نعم، قال: وأين هى؟ فقالا: هى دار الله تعالى ربنا وربك، وهى الجنة التى يدوم نعيمها، ولا يزول ملكها، قال: فصفاها لى، فوصفاها له، قال: وبأى شىء تنال هذه الدار؟ قالا: بعبادة الله والانقطاع إليه، قال: وكيف تكون العبادة؟ فشرعا له الدين، فوقع فى قلبه أن ذلك هو الحق، فقال لهما: أقيما عندى فى هذه الليلة حتى أنظر فيما ذكرتماه لى، فإن أقمت فى ملكى جعلتكما وزيرين لا أعصيكما، وإذا خرجت منه تبعتكما على أمركما.

ثم قام فدخل على ابنة له، وكانت عاقلة فهيمة، فقص حكايته عليها، وهو ما ذكراه له، وأخبرهما أنه تارك ملكه وخارج معهما، فقالت: يا أبت، انج بنفسك وخذنى معك، قال: يا بنيتى، أنت عورة، فكيف أصنع بك؟ فقالت: إنى أخفى شخصى، فلا يعلم أحد أذكر أنا أم أنثى، قال: فاخلعى ثيابك واخرجى، ففعلت ذلك وخرجت مع أبيها إلى الرجلين، فقال لهما: سيرا بنا ما دام ظلام الليل ساجيًا، وهذا ولدى معى، فساروا حتى قطعوا المدينة وخرجوا منها، ثم ساروا حتى جاوزوا مملكة ذلك الملك، ثم ساروا حتى بلغوا ديرًا، فقالا له: هذا موضعنا الذى نعبد ربنا فيه، فدخلوا إليه جميعًا، فأقام عندهما مدة طويلة يتعلم منهما الدين وأحكام الشريعة، ثم تجهز للخروج عنهما، فقالوا له: ما شأنك؟ هل أذاك أحد منا؟ قال: لا، ولكنى أراكما تكرماننى لما كنت فيه من الملك، فأريد أن آتى موضعًا لا أعرف فيه، فأكون فى غمار الناس.

فتركاه ومضى حتى أتى ديرًا كبيرًا كثير الأهل، فيه مساكن كثيرة، فقال: هل من منزل؟ فقيل له: ادخل، فدخل واختار منزلاً، فكان هو وابنته يعبدان الله تعالى فيه، وكان لأهل ذلك الدير مزرعة، وكل لكل رجل من سكان الدير حراستها سنة كاملة، فبلغت النوبة إلى الشيخ، وكان مريضًا، فقيل له ذلك، فقال: إن عذرى واضح، فقالت

له ابنته: أنا أخرج عنك، فخرجت إلى المزرعة، فما كان يراها الناس إلا قائمة تصلى، وفى أمر هى به مغتبطة.

قال: وكان يقربهم دير صغير ينسب إلى رجل له ابنة جميلة، فجاءت تلك الأبنة، فاتصلت بها وهى تظن أنها غلام، فجعلت تعرض عليها نفسها، وهى تعتصم من شرها، فلما رأت الجارية أنها لا تفعل، قالت: والله لأهلكنك وأهلكن أباك، ثم أنها ذهبت إلى راع فمكنته من نفسها فحملت، فلما عظم بطنها قال لها أبوها: ما هذا؟ قالت: إنى كنت عند ولد الشيخ مطمئنة إليه لما رأيت من كثرة عبادته واجتهاده، وكان هذا منه، فجاء أبوها وأهل ديره، فأخبروا أهل ذلك الدير الكبير بذلك، وقالوا: لا ينبغى أن يكون هذا الشيخ وولده عندكم، وهموا على إخراجه، إلا أنه لشدة مرضه لم يقدروا على ذلك.

ثم توفى الشيخ مكانه، فلم يأخذوا فى جهازه، فقال علماؤهم: إنه لا ذنب له، فاغسلوه وكفنوه واطردوا ابنه، فلا يدخل ديركم، ففعلوا ذلك، فقالت الفتاة: دعونى أبنى لى بيتًا فى الصحراء أحرس نفسى فيه من السباع، فبنت لها بيتًا، فكانت تعبد الله تعالى، وتزور قبر أبيها، حتى إذا كانت ليلة من الليالى، مر بها رجل من أهل الدير، فإذا باب بيتها مفتوح، فناداه: يا فتى، فأجابته بصوت خافت، فقال: أحسبك مريضًا؟ قال: نعم، قال: فهل لك حاجة؟ قال: نعم، إذا أنا مت، فلا تكشفونى، ولا تنزعونى من ثيابى وغسلونى فيها، وادفنونى فى قبر أبى، فقد حفرت إلى جانبه قبرًا، ثم أصبحوا فسمعوا قائلاً يقول: مات ابن الشيخ، فقال الرجل الذى كان أوصاه: إنه أوصانى بكذا وكذا، فقال علماؤهم: لا تغيروا سنتنا، ابعثوا إليه رجلاً يغسله مجردًا من ثيابه، ثم كفنوه وادفنوه إلى جانب قبر أبيه كما أوصى.

فلما جاء الرجل وكشف عنه ليغسله، فوجدها امرأة، فغطوها وتنادوا فى الديوان: الذى طردتموه إنما هو امرأة، فبعثوا إليها النساء وغسلوها، فلما جهزوها حضر إلى الصلاة عليها جميع من فى تلك الأرض، ثم دفنوها إلى جانب أبيها، قال: قال عبد الله ابن عمر: فلقد كان أهل تلك الناحية إذا أقحطوا جاءوا إلى قبر أبيها وقبرها، فاستسقوا الله تعالى فيسقون، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الروضة الرابعة: حكى أن ملكًا من اليونان قام من منامه فى بعض الغدوات، فأتته القيمة على ثيابه بملبوس، ثم ناولته المرآة، فنظر إلى وجهه، فوجد فى لحيته شعرة بيضاء،

فقال لها: هاتى المقراض؟ فأتته به فقصها، فتناولتها الجارية، وكانت حكيمة لبيبة عاقلة، فوضعتها فى كفها، وأصغت إليها بأذنها، والملك ينظر إليها، فقال: ما هذا الذى تصغين إليه؟ قالت: أستمع ما تقول هذه الشعرة التى عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما سخط عليها الملك فاقتصها، فقال الملك: وما الذى سمعت من قولها؟ قالت: زعم قلبى أنه سمعها تقول كلامًا لا يجترئ عليه لسانى خوفًا من سطوة الملك، فقال لها الملك: قولى ما شئت آمنة إن لزمت قانون الحكمة، قالت: إنها تقول: أيها العائش إلى أمد قصير، إنى قد علمت منك البطش بى والاعتداء علىّ إذ ظهرت ظاهر بشرتك، فلم أظهر فى وقتى هذا حتى عهدت إلى أخواتى من بعدى فى الأخذ بثأرى منك، إما باستئصالك، وإما بتنغيص لذتك، وتنقيص قوتك، حتى تعد الموت راحة لك.

فقال لها الملك: اكتبى كلامك، فكتبته فى لوح، فجعل يتدبره ساعة، ثم نهض مبادرًا، فأتى هيكلاً من هياكلهم، فنزع عنه تاجه وثياب الملوك، وتزيا بزى النساك، وبلغ ذلك أهله وأهل مملكته، فطلبوه وسألوه بأن يعود إلى ملكه وتدبيره، فامتنع منهم وسألهم إقالته وتمليك غيره، فامتنعوا عليه وهموا بأخذه قهرًا، فاصطلح أهل الهيكل معهم على أن يتركوه يعبد ربه ويستنيب غيره فيما استناب فى مثله من الأمور، ويلى هو غير ذلك من الأمور العظام بنفسه، مع إقامته فى الهيكل، فلبث على هذا الأمر حتى قبضه الله إليه، رحمة الله عليه.

الروضة الخامسة: حكى أبو عبد الله محمد بن أبى محمد ظفر الحجازى، رحمه الله تعالى، أن ملكًا من ملوك الزمان كان كافرًا، عتيًا، متكبرًا، حديث السن، مستحكم العزة، وكان له وزير مؤمن بالله تعالى، قد أدرك بعض حوارى المسيح وهو يكتم إيمانه، ويتحرى وقتًا يمكن فيه دعوة الملك إلى الله تعالى، فركب الملك يومًا، فسمع شيخًا رافعًا صوته لبعض شأنه، فقال للأعوان: خذوه، فلما أخذوا ذلك الشيخ، قال: إن ربى الله، فقال الوزير: تخلوا عنه، فخلى عنه الأعوان، فاشتد غضب الملك على الوزير، ولم يمكنه الإنكار عليه فى ذلك المقام، فسكت ليوهم الناس إنما فعل ذلك الوزير بأمره.

فلما عاد الملك إلى قصره، أحضر الوزير وقال له: ما دعاك إلى مناقضة أمرى بمشهد من عبيدى؟ فقال له الوزير: إن لم يعجل علىَّ الملك أريه وجه نصحى له وشفقتى عليه فيما أتيته، فقال الملك: أرنى ذلك، فإنى لا أعجل عليك، فقال الوزير: أسأل الملك أن يختبىء فى مجلسه هذا خلف حجاب، فيكون بحيث يسمع ويرى ما يكون منى، فقعد الملك كذلك، ثم أن الوزير أحضر قوسًا جيدة، صنعها للملك بعض خدمه، وكتب

الصانع اسمه عليها، فأعطى القوس غلامًا، وقال له: أحضر صانع هذا القوس، فإذا حضر وحادثته فاقرأ انت اسم صاحب القوس جهرًا حتى تعلم أنه قد سمعك، ثم اكسرها وهو ينظر إليك.

فحضر القواس، وفعل الغلام ما أمره به الوزير، فلما كسر القوس، لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه، فقال الوزير: أتضرب غلامى بحضرتى؟ قال: نعم؛ لأنه كسر القوس التى هى صنعتى وعملى، وهى فى نهاية الجودة والحسن، فلأى شىء كسرها وهو يعلم أنها صنعتى؟ قال الوزير: فلعله ما علم أنها صنعتك؟ قال: بلى إن القوس أخبره أنه صنعتى، قال الوزير: أرأيت قوسًا يخبر؟ قال: نعم، إن اسمى مكتوب عليه وقرأه وأنا أسمع.

ثم أن الوزير صرف الصانع والغلام، ثم قال للملك: قد أوضحت لك نصحى وإشفاقى عليك، وذلك أنك لما أردت البطش بالشيخ، أخبرك أن الله ربه، فخفت عليك من ربه أن يغضب كما غضب هذا القواس لقوسه، فقال له الملك: وهل للشيخ رب غيرى؟ قال له الوزير: ألم ير الملك أن الرجل شيخًا كبيرًا والملك شاب؟ فهل كان قبل أن يولد الملك لا رب له؟ فقال له: إن أبى كان ربه، فقال له الوزير: فما بال الرب هلك والمربوب باق؟ فسكت الملك ساعة، وقال: الآن علمت أن للملك والمملوك ربًا لا يزول، فهل تعرفه؟ فقال الوزير: نعم أعرفه، قال: فصفه ودلنى عليه؟ فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق، وأوضح له الدلالة على ذلك، فانشرح صدر الملك للإيمان، فآمن بالله تعالى.

فلما رسخ فى قلبه التوحيد، قال: أما لربنا خدمة فنتقرب بها إليه؟ قال: إنه غنى عن كل شىء، قال: فما أمرنا بشىء إذا فعلناه حظينا به عنده؟ قال: بلى، إن له وظائف أمرنا بها، ورضى لنا فعلها، ووعدنا عليها رضوانه والقرب منه، فسأله عنها، فذكرها له، وهى: الصلاة، والصيام، وغيرها من شرائع المسيح، عليه السلام، فعرفها الملك وراض نفسه بها، حتى صارت له طبعًا، ثم قال يومًا للوزير: ما لك لا تدعو الناس إلى الله تعالى كما دعوتنى؟ فقال: أمة ذات قلوب قاسية، وفهوم قاصية، ونفوس عاصية، ولست آمنهم على نفسى، فقال الملك: أنا أفعله إن لم تفعله أنت، فقال الوزير: ليعلم الملك أنهم إن لم تذدهم هيبته عنى لا آمنهم على نفسى، وسأدعوهم إلى الإله، فإن اجترأوا بالقتل علىَّ، فلا يعفهم الملك.

ثم أن الوزير أحضر وجوه أهل تلك المملكة، وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها، فلما اجتمعوا فى منزله، قام فيهم خطيبًا بالدعوة إلى التوحيد، فتواثبوا عليه فقتلوه، ثم أتوا إلى الملك، فأخبروه بما كان من وزيره، فأظهر لهم الرضى بقتله، فانقلبوا عنه راضين، ثم أن الملك ضاق صدره على وزيره، فلما كان الليل لبس مسوح الشعر، والتحق بالركبان، ونبذ ما كان فيه من الملك، ولم يزل يعبد الله تعالى حتى قضى نحبه، رحمة الله عليه وعلى المسلمين أجمعين آمين.

* * *

حكاية الطبقة الثانية

وهى خمس روضات

الروضة الأولى: حكى مالك بن أنس، رضى الله عنه، أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لما ولى الخلافة، دخل عليه محمد بن كعب، وعنده هشام بن مصاد، وقد وعظه فأبكاه، فقال له محمد: ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أبكانى هشام حين ذكرنى وقوفى بين يدى ربى، فقال له محمد: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما نفعهم، ومنها خرجوا بما ضرهم، فلا تكن من قوم قد غرهم منها مثل الذى أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم منها، فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جنة، فاقتسم فيما جمعوا من لا يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فانظر يا أمير المؤمنين إلى تلك الأعمال التى تتخوف منها فكف عنها، وانظر إلى الذى تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فاصنع منه، وابذل حيث يوجد البذل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تروج معك، فاتق الله تعالى يا أمير المؤمنين، وافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، واردع الظالم.

يا أمير المؤمنين، ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. قال: فاشتد بكاء عمر بن عبد العزيز وعلا نحيبه، وقال: اللهم أعنى على ما أبليتنى به من أمر عبادك وبلادك، وارزقنى فيهم العمل بطاعتك، واختم لى بخير منك وعافية والمسلمين أجمعين.

الروضة الثانية: حكى أن سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة، أقام بها ثلاثًا، فقال:

ما هاهنا رجل أدرك الصحابة يحدثنا؟ فقيل له: إن هاهنا رجلاً عابدًا من التابعين اسمه أبو حازم، أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، ونقل عنهم الأحاديث، فبعث إليه، فلما جاءه واستقر به المجلس، قال له سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب، قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ فقال: أما المحسن، فكغائب يقدم على أهله، وأما المسئ، فكالعبد الأبق يقدم على مولاه.

قال: فبكى سليمان، وقال: ليت شعرى، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى، فإنك تعلم ما لك وما عليك، قال: وأين أصيب ذلك من كتاب الله تعالى؟ قال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال: يا أبا حازم، أين رحمة الله تعالى؟ قال: قريب من المحسنين، قال: فبكى سليمان، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه إليه، وقال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس، قال: من أحمق الناس؟ قال: من دخل فى هوى رجل ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفنى من ذلك، فقال: إنما هى نصيحة بلغتها، فقال: إن ناسًا أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعرى، ما قالوا وما قيل لهم؟ فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ، قال أبو حازم: كذبت والله يا جليس السوء، إن الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فقال سليمان: يا أبا حازم، كيف لنا على الصلاح؟ قال: تدعو التكلف، ولتمسك بالحقيقة، قال: فكيف طريق الأخذ لذلك؟ قال: تأخذ المال من حله، وتضعه فى أهله، قال: ومن يقدر على ذلك؟ قال: من قلده الله تعالى من الأرض ما قلدك، قال: أفترى يا أبا حازم أن تصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله من ذلك، قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلاً، فيذيقنى ضعف الحياة، وضعف الممات، قال: يا أبا حازم، فدلنى على ما أصنع؟ قال: اتق الله تعالى أن يراك حيث نهاك، ويفقدك حيث أمرك، قال: ادع لنا يا أبا حازم؟ قال: اللهم إن كان سليمان وليك، فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك، فخذ بناصيته إلى فعل الخير، وأصلحه فى الدنيا والآخرة.

فقال سليمان: يا غلام، اعط أبا حازم مائة دينار ليقضى بها دينه، فقال: لا حاجة لى

بها، إنى أخاف أن تكون عوضًا من كلامى، فيكون أكل الميتة أحب إلىَّ من أخذها، ثم نهض فخرج من عنده، فلما كان من الغد بعث إليه فأحضره، فلما أن دخل عليه، قال: يا أبا حازم، أعظنا عظة ننتفع بها؟ فقال: إن هذا الأمر لم يحصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فبكى سليمان وكاد يسقط عن جنبه، فلما أفاق قال سليمان: ارفع إلىَّ حوائجك يا أبا حازم، قال: هيهات، إنى قد رفعتها إلى من لا تحجب دونه الحوائج، فما أعطانى منها قنعت، وما منعنى منها رضيت، وذلك إنى نظرت إلى هذا الحال وهذا الأمر، فإذا هو على قسمين، أحدهما لى، والآخر لغيرى، أما ما كان لى، فلو احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه الذى قدر لى فيه، وأما الذى لغيرى، فذاك لا طمع لى فيه، وكما منع غيرى من رزقى، كذلك منعت أنا من رزق غيرى، وانصرف فما برح سليمان بعد ذلك مستضعفًا حتى مات.

الروضة الثالثة: حكى أبو القاسم عبد العزيز بن حسن بإسناده، أن أمير المؤمنين المنصور بعث إلى الأوزاعى وهو بالساحل، فأحضر عنده، فلما استقر به المجلس، قال له المنصور: ما الذى أبطأ بك عنا يا أوزاعى؟ قال: وما الذى تريد منى يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنك والاقتباس منك، قال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تجهل شيئًا مما أقول لك، قال: وكيف لا أجهله وأنا أسأل عنه؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنك تسمعه ولا تعمل به.

قال: فصاح به الربيع، وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، قال: فصاح الأوزاعى، رحمه الله تعالى: يا أمير المؤمنين، حدثنا مكحول بن عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى عبد جاءته موعظة من الله فى دينه، فإنها نعمة من الله تعالى سيقت إليه، فإن قبلها شكره، وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثمًا، ويزاد بها عليه سخطًا»[١]، وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّما وال بات غاشًا لرعيته، حرم الله عليه الجنة»[٢].

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/٢٩) ح (٧٤١٠)، وعزاه إبراهيم الحسينى لابن عساكر فى التاريخ، عن عطية بن قيس أخى عبد الله المازنى سامى. انظر: البيان والتعريف (١/٣١٩) برقم (٨٦٠).

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/٣٠) ح (٧٤١١). وبلفظ: «أيما إمام بات غاشًا»، أخرجه الروياني فى مسنده (٢/٩٣) ح (٨٨٣).

يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله تعالى؛ لأن الله هو الحق المبين، يا أمير المؤمنين، إن الذى لين لك قلوب الأمة حتى ولاك أمورهم لقرابتك من نبيه ﷺ، فحقيق أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تقوم فيهم بالقسط قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، فلا تغلق عليهم وعليك الباب، ولا تقم عليك دونهم الحجاب، وابتهج بالنعمة عندهم، وتأذى لما أصابهم من مكروه، يا أمير المؤمنين، لقد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبح أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف إذا بعثك الله يوم القيامة وليس منهم أحد إلا وهو يشكوك إلى ربه من بلية أدخلتها عليه، أو ظلومة سقتها إليه؟.

يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول، قال: كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها، ويروع بها المنافقين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التى كسرت بها قلوب أمتك، وملأت نفوسهم بها رعبًا؟ فكيف بمن شق أستارهم، وسفك دماءهم، وخرب ديارهم، وأخذ أموالهم، وأخلاهم عن بلادهم، وأذاقهم الخوف؟ يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول، عن ابن زياد بن حارثة، عن حبيب بن سلمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيًا لم يتعمده، إذ أتاه جبريل، عليه السلام، فقال يا محمد، إن الله تعالى لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا، فدعا رسول الله ﷺ الأعرابى، فقال: «اقتص منى»، فقال الأعرابى: قد أحللتك يا رسول الله بأبى أنت وأمى، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا، فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[1].

يا أمير المؤمنين، رض نفسك بنفسك، وخذ لها الآمال من ربك، وارغب فى جنة عرضها السموات والأرض، التى يقول فيها رسول الله ﷺ: «لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»، يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لمن كان قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك، يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لأحد ما بقى لأحد.

يا أمير المؤمنين، أتدرى ما جاء عن جدك عبد الله بن العباس، رضى الله عنهما، فى تاويل آية: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [ص: ٢٦]؟ قال: يا داود، إذا قعد الخصمان بين

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣٩٧/٤) ح (٧٩٤٣)، وقال: تفرد به أحمد بن عبيد، عن محمد ابن مصعب، ومحمد بن مصعب ثقة. والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١٣).

يديك، وكان فى أحدهما هوى، فلا تميز نفسك أن يكون الحق له، فيفلح على صاحبه، فأمحك من نبوتى، يا داود، إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاة كرعاة الإبل الذى يجبرون الكسير، ويدلون الهزيل على الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه، وقد حدثنى يزيد بن جبار، عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه فى بعض أيام مقيمًا، فقال: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك فيه مثل أجر المجاهدين فى سبيل الله؟ قال: لا، قال: كيف ذلك؟ قال: لأنه بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من والٍ يلى شيئًا من أمور المسلمين، إلا أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فيوقف على جسر من نار، فينتفض به الجسر انتفاضًا يزيل به كل عضو منه من موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإذا كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا تخرق به ذلك الجسر فهوى فى النار سبعين خريفًا»[1]، فقال له عمر: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبى ذر وسليمان، فأرسل إليهما عمر، رضى الله عنه، وسألهما عن ذلك؟ فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ، فبكا عمر، رضى الله عنه، وقال: واعمراه، من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من جدع الله أنفه، وألصق خده بالأرض.

قال: فبكى المنصور، وأخذ المنديل فوضعه على وجهه، وجعل ينتحب فى بكائه حتى أبكى الحاضرين، فأمسك الأوزاعى ساعة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن جدك العباس سأل رسول الله ﷺ إمارة على مكة والطائف واليمن، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم النبى، نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها»، وهذه النصيحة منه نعمه وشفقة عليه، يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: بلغنى أن الأمراء أربعة: أمير ظلم نفسه وعماله، فذاك كالمجاهد فى سبيل الله تعالى، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف، ظلم نفسه، وأرتع عماله لضعفه، فهو على شفا هلاك إلى أن يرحمه الله تعالى، وأمير كلف عماله، وأرتع نفسه، فأهلك نفسه،

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/٣٢) ح (٧٤١٦)، وهذا النص عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، ورد ضمن خطبة خطبها، صلى الله عليه وآله وسلم، قبل وفاته. أخرجه الحارث فى مسنده (١/٣٠٩ - ٣١٦) ح (٢٠٥). زوائد الحافظ الهيثمى.

فلذلك هو الحطمة الذى قال رسول الله ﷺ: «شر الرعاة الحطمة»[١] الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله، فهلكوا جميعًا[٢].

يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: اللهم إنك تعلم إنى أبالى إذا قعد الخصمان بين يدى بمن مال الحق معه من قريب أو بعيد، فلا تمهلنى طرفة عين. يا أمير المؤمنين، إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإن من طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبها بمعصية الله وضعه الله تعالى وأذله، وهذه نصيحتى إليك، والسلام عليك ورحمة الله.

قال: فلما سكن عن منصور البكاء رفع رأسه، وقال: يا أوزاعى، قد قلت وأنت غير متهم فى نصحك، وقد سمعناه منك وصادف قبولاً إن شاء الله تعالى، والله الموفق للخير والمعين عليه، يا ربيع، ادفع إلى الأوزاعى ما يستعين به على زمانه، قال: يا أمير المؤمنين، إنى غنى عن ذلك، وما كنت لأبيع نصيحتى بشىء من عرض الدنيا، ثم إنه ودع المنصور وانصرف إلى حال سبيله.

الروضة الرابعة: حكى ابن عبد ربه، قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة حاجًا، فنزل فى دار الندوة، وكان يخرج فى آخر الليل إلى الطواف، فيطوف ويصلى، ولا يعلم به أحد من الناس، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة، وجاء المؤذنون فسلموا عليه، ثم تقام الصلاة فيصلى بالناس، قال: فخرج ذات ليلة حين أسحر، فبينما هو يطوف، إذ سمع رجلاً عند الكعبة وهو يقول: اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع.

قال: فأسرع المنصور فى مشيه، حتى ملأ مسامعه من قوله، فرجع فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إليه فدعاه، فلما حضر قال له المنصور: ما هذا الذى سمعتك تقول من

---

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «شر الرعاة الحطمة»، أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٢/٣٢٥، ٣٢٦) ح (١٠٩٢)، وبلفظ: «شر الرعاء الحطمة»، أخرجه مسلم (٣/١٤٦١) ح (١٨٣٠)، وبلفظ: «شر الأئمة الحطمة»، أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٢/٢٢) ح (٨٠٦)، وبلفظ: «شر الولاة الحطمة»، عزاه الحافظ الهيثمى للبراز، وقال: فيه عبد الكريم بن أبى أمية، وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٥/٢٣٦).

(٢) والقول هكذا بنصه، وفيه زيادة من قول الخليفة على، عليه السلام، ذكره البيهقى فى شعب الإيمان (٦/٣٣) ح (٧٤١٨).

ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلامة والطمع، فقال الرجل: إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور؟ قال له المنصور: أنت آمن على نفسك، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى استرعاك أموال خلقه، فجعلت بينك وبينهم حجابًا من الجص والآجر، وأبوابًا من الحديد، وحجبة مع السلاح، ثم سجنت نفسك فيها، وبعثت عمالك فى جمع أموالهم، واتخذت وزراء ظلمة، وأعوانًا غشمة، إن نسيت لم يذكروك، وإن أحسنت لم يعينوك، ثم قويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت أن لا يدخل إلا فلان وفلان، نفر سميتهم، ولم تأمر بإدخال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع، ولا العارى، ولا الضعيف.

فلما رآك هؤلاء النفر قد استخدمتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، قالوا: هذا خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه وقد خان الله تعالى، فأضمروا على أن لا يوصلوا إليك من أخبار رعيتك إلا ما أرادوا، ومتى أخرجت عاملاً فخالفهم فى أمر أقصوه وأبعدوه، وبلغوك عنه المكروه حتى يسقط من عينك، فلما اشتهر ذلك عنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم بالهدايا والأموال عمالك القائمين على البلاد ليتفقوا على ظلم الرعية، ثم فعل ذلك أهل القدرة والثروة من رعيتك؛ لينالوا ظلم من هم دونهم من الرعية، فامتلأت بلاد الله بالطبع بغيًا وفسادًا من هؤلاء القوم شركائك فى سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول عليك، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك لم يأخذها أحد، وإن أخذها لم يوصلها إليك، وإذا استغاث بك مظلوم بأعلى صوته ضربوه ضربًا شديدًا، فما بقى من الإسلام بعد ذلك؟.

وقد كانت بنو أمية لا ينتهى إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته، وكان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ سلطانهم، فينادى بأعلى صوته: يا أهل الإسلام، فيبتدرون إليه، ويقولون: ما لك؟ فيرفعون ظلامته إلى سلطانهم، فينصف بينه وبين ظالمه، ولقد رأيتم ما تركوا بعدهم من الأموال ولم تنفعهم، ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى بلاد الصين وبها ملك قد ذهب سمعه، فجعل يبكى، فقال له وزراؤه: لا بكت عيناك أيها الملك، ممّ بكاؤك؟ فقال: لست أبكى لنزول البلية بى، وإنما أبكى لأن المظلوم يقف بالباب يصرخ فلا أسمعه، ثم قال: لئن ذهب سمعى فما ذهب بصرى، نادوا فى الناس: لا يلبس ثوبًا أحمر إلا المظلوم، وكان يركب كل يوم فيله ويخرج، لعله يرى مظلومًا فينصفه.

هذا يا أمير المؤمنين وهو مشرك بالله تعالى، وغلبت عليه الرأفة على المشركين، وأنت مؤمن بالله تعالى، وابن عم نبيه، لا تغلبنك رأفتك على المسلمين، فما تقول إذا نزع الله منك ملك الدنيا، ودعاك إلى الحساب غدًا؟ هل ينفعك الندم إذا زلت بك القدم؟ قال: فبكى المنصور وأعلن النحيب، ثم قال: يا ليتنى لم أخلق، وقال: كيف احتيالى ولم أر من الناس إلا جانبًا، ثم قال الرجل: يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة المرشدين، قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: فقد فروا عنى وهربوا منى، قال: إنما فروا عنك وهربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر منك من قبل عمالك، ولكن افتح الباب، وسهل الجواب، وانصر المظلوم، وخذ المال من حله، وقسمه فى أهله، وأنا ضامن لك أن من هرب منك يعود إليك، ويعاونك على صلاح أمرك، فقال المنصور: اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل.

ثم جاء المؤذنون، فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة، فجعل يصلى بالناس، وقال للحرسى: عليك بحفظ هذا الرجل حتى أفرغ من الصلاة، قال: فلما فرغت الصلاة التفت إلى الحرسى يطلب الرجل فى موضعه، فلم يره، فأمر المنصور به، فلم يره، فاشتد غضبه على الحرسى، وقال: لئن لم تأتينى به لأضربن عنقك، فخرج الحرسى يطوف عليه، وإذا به فى بعض الشعاب قائم يصلى الضحى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: إنه عزم ليضربن عنقى إن لم آته بك؟ قال: إنه لن يقدر على ذلك، ثم أخرج من جيبه رقعة مكتوبة، وقال: اجعل هذه فى جيبك، فإن فيها دعاء الفرج، فإنه إذا رآك ذهب غيظه، وخشع قلبه، وأوصل إليك ما يسرك.

فقال له الحرسى: يرحمك الله، فما دعاء الفرج؟ قال: من دعا به صباحًا ومساء ذهبت ذنوبه، ودام سروره، وبسط الله له فى رزقه، وأعانه على عدوه، وكان آمنًا من ظلم الجبارين، ولا يموت إلا شهيدًا، قال الحرسى: وكأنه كان بعض ملح وذاب، فلم أر له أثرًا، فرجع الحرسى إلى المنصور، فلما دخل عليه نظر إليه وتبسم، وقال: ويحك أتحسن السحر؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكنى وجدته، وكان من حديثه كذا وكذا، فقال: ادفع إلىَّ الرقعة، فدفعها إليه، فنظر فيها وجعل يبكى، ثم أمر بنسخها، وأمر للحرسى بعشرة آلاف درهم.

وقال: أتعرفون من كان الرجل؟ قال الحاضرون: لا يا أمير المؤمنين، قال: ذلك هو الخضر، عليه السلام، ثم دفع الرقعة إلى من قرأها على الحاضرين، فكان فيها مكتوب:

اللهم كما لطفت بقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت الوساوس كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر فى علمك، وانقاد كل شىء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لى من كل أمر أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا، اللهم إن عفوك عن ذنوبى، وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك عن قبيح عملى، أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمنًا، وأسألك مستأنسًا وأنت المحسن إلىَّ، وأنا المسئ إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودد إلىَّ بالنعم، وأتبغض إليك بالمعاصى، ولكن الثقة بك حملتنى على الجرأة عليك، فعد بفضلك وإحسانك علىّ يا أرحم الراحمين. قال: فلما رجع المنصور إلى بغداد، استبدل عماله وحجابه، ثم إنه فتح الباب، وسهل الجواب، ولم يزل عاملاً بقوله حتى مات.

الروضة الخامسة: ما حكاه الفضل بن الربيع، قال: لما حج الرشيد حججت معه، فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ سمعت قرع الباب، فخرجت فوجدته الرشيد، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلىَّ أتيتك، فقال: ويحك إنه قد حاك فى صدرى شىء، فانظر لى رجلاً أسأله؟ فقلت: إن هاهنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعنا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: لو أرسلت إلىَّ أتيتك، فقلت: خذ لما جئناك به يرحمك الله، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: يا أبا العباس، اقض دينه، ثم انصرفنا من عنده.

فقال: ما أغنانى صاحبك شيئًا، فانظر لى رجلاً أسأله؟ فقلت له: الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فسمعناه يقرأ آية فى كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فأوجز فى صلاته، وقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لى ولأمير المؤمنين؟ قلت: سبحان الله، أما عليك طاعته، فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية وأخفى نفسه، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد إليه، فقال: كف ما ألينه إن نجا من عذاب الله تعالى.

فقال الرشيد: خذ بما جئناك له يرحمك الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حيان، وقال: إنى قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علىّ ما أصنع؟ فعد الخلافة بلاء، وأنت وأصحابك تعدونها نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت

النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين لك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وصغيرهم ولدًا، فوقر أباك، وتحنن على أخيك، وارفق على ولدك.

وقال له رجاء بن حيان: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت متى شئت، فهل عندك يا أمير المؤمنين من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا الأمر؟ وإنى لأقول لك هذا، وأخاف عليك أشد الخوف يوم يزل القدم، قال: فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا، حتى غشى عليه، فقلت له: يرحمك الله، أرفق بأمير المؤمنين؟ فقال: قتلته أنت وأصحابك، وأرفق أنا به؟ فلما أفاق، قال: زدنى؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، شكى إليه، فكتب له عمر: يا أخى، اذكر سهر أهل النار فى النار، وخلود الأبدان، فإن ذلك يصرفك إلى ربك نائمًا ويقظانًا، وإياك أن تزل بك قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه، طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له: ما أقدمك علىّ؟ قال: خلعت قلبى، فوالله ما وليت لك ولاية قط حتى ألقى الله تعالى.

فبكى هارون، ثم قال: زدنى رحمك الله، قال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبى ﷺ جاء إليه، وقال: يا رسول الله، أمرنى إمارة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عباس، يا عم النبى، إن نفسًا تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل»، قال: فبكى هارون، وقال: زدنى يرحمك الله؟ قال: يا حسن الوجه، أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى وجهك من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك، فقد قال رسول الله ﷺ: «من أصبح غاشًا لرعيته، لم يرح رائحة الجنة»[1].

قال: فاشتد بكاء هارون، فأمسك عنه الفضيل، فلما أفاق قال: هل عليك دين؟ قال الفضيل: نعم علىّ دين لربى لم يحاسبنى عليه، فالويل لى إن حاسبنى، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى، فقال الرشيد: إنما أردت دين العباد، قال: لا، فإن ربى لم يأمرنى

---

(١) أخرجه البخارى (٦٧٣٢)، ومسلم (١/١٢٥) ح (١٤٢)، والرويانى فى مسنده (٢/٩٣) ح (٨٨٣)، وابن الجعد فى مسنده (١/٤٥٨) ح (٣١٤٠)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/٢٢) ح (٨٠٥)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٦/٣٠) ح (٧٤١١)، والطبرانى فى الكبير (٢٠/٢٠٧) ح (٤٧٤).

بذلك، بل أمرنى أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فقال هارون: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك، فهى من وجه الحل، فقال: سبحان الله، أنا أدلك على النجاة وأنت تدعونى إلى النار، ثم سكت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، سمعنا امرأة من نسائه تقول: يا هذا، قد ترى ما نحن فيه من الضائقة وسوء الحال، فلو قبلت منه هذا المال لتقوينا به على زماننا؟ فقال لها: إنما مثلى ومثلكم كقوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر وعجز عن الكسب، نحروه وأكلوا لحمه.

قال: فلما سمع الرشيد، قال: يا فضل، ادخل بنا إليه فلعله يقبل منا هذا المال، فلما دخلنا عليه وأحس بنا، خرج فجلس على السطح على التراب، فجلس الرشيد إلى جانبه وجعل يكلمه، فلم يجبه، فخرجت جارية وقالت: يا هذا، قد أذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف عنه يرحمك الله، قال: فلما خرجنا من عنده قال لى الرشيد: إذا دللتنى فدلنى على مثل هذا الرجل، هذا يوم وليلة من أشرق الأيام والليالى، رحمة الله عليهم أجمعين.

* * *

وأما الطبقة الثالثة

من الملوك، فهم الأكثرون، قلوبهم قسية، وأنفسهم عصية، يورثون ويؤثرون اللذات على الأمور الدينيات، وفى المشاهدة منهم بالأبصار كفاية عن الأخبار، وقد انتهينا فى كتابنا هذا إلى ما حاولناه، وأوردنا فيه ما أردناه، وأتينا بما ضمناه بعد ما أوضحنا، وذلك وسع الطاقة وجهد المقل، وعلى الله أتوكل، وبه أستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب الجليل يوم السبت المبارك ثانى شهر شعبان المعظم قدره من شهور سنة ١٠٧٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

* * *

المحتويات